أثـــر خطوات الشهيد

مركز الإتحاد للأبحاث والتطوير

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION

أثـــر
خطوات
الشهيد

مختارات قصصية من سلسلة سادة القافلة

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION

برواية الحاج قاسم[1]

أنا قاسم سليماني قائد فيلق "صاحب الزمان" السابع التابع لمحافظة كرمان. ولدت سنة 1958م في قرية "قنات ملك" من ضواحي كرمان، حائز شهادة البكالوريا، متزوج ولديّ ولدان، صبي وبنت.

قبل الثورة كنت موظفًا في "مصلحة مياه" كرمان، وبعد انتصار الثورة الإسلامية وفي الأوّل من شهر أيار سنة 1980م، التحقت بحرس الثورة الإسلاميّة.

مع اندلاع الحرب وهجوم النظام العراقي على مطارات البلاد بقيت مدة أحرس الطائرات الموجودة في مطار كرمان. وبعد مضيّ شهرين أو ثلاثة على اندلاع الحرب، انطلقنا إلى جبهات سوسنكرد ضمن القوّات الأولى المرسلة من كرمان والتي كان تعدادها 300 شخص تقريبًا، بصفة قائد فصيل.

في الأيام الأولى لالتحاقي بالجبهة اعتقدت أنّ العدو قادر على القيام بأي شيء، لكنّنا تمكّنا في أوّل هجوم لنا من إرغامه على التقهقر من جانب طريق سوسنكرد إلى الحميدية، وكبّدناه خسائر أيضًا. وقد أدّى هذا الأمر إلى زوال التصوّر الخاطئ عن العدو من ذهني.

أذكر أنّنا بعد ذلك الهجوم صرنا نقتحم مواقع العراقيّين ليلًا. كان لديّ صديق يدعى "حميد الفدائي"[2] وقد استشهد فيما بعد. وصل به الأمر في بعض الأوقات إلى أن يذهب إلى متاريس العراقيّين بدراجته النارية. لم يكن أحد في ذلك الوقت يتوقع أن تنتهي الحرب في تلك السنة. ولو أنّ شخصًا كان يقول إنّ الحرب قد تطول لستّ سنوات مثلًا لم نكن لنصدّق. ولكن فيما بعد أصبحنا نتوقع أن تطول الحرب ثماني سنوات.

كنت مولعًا جدًا بالخطط والقضايا العسكرية، وكذلك الجبهة، وبسبب هذه المحبة وطِئتُ أرض الجبهة في مهمة تمتد 15 يومًا، ولم أرجع إلا بعد أن وضعت الحرب أوزارها.

أفضل العمليّات التي شاركت فيها كانت "الفتح المبين". أوكلت إلينا ولأول مرة حينها مهمة تشكيل لواء، ورغم إصابتي توليت مسؤولية مساعد قائد المحور في جبهة "شوش" و"سهل عباس". تزخر هذه العمليّات من حيث النجاحات التي حققناها بالذكريات العذبة جدًا، إذ أنّنا رغم الضائقة الشديدة التي واجهتنا من حيث الإمكانات فقد استطعنا بهمة مجاهدي الإسلام أن نأسر 3000 جندي عراقي تقريبًا. وكذلك في عمليّات "والفجر8"، وبصرف النظر عن النصر الذي تكلّلت به، فقد تذوّق الإخوة حلاوتها برغم مشاقّها ومعاناتها، وكان لفرقة "ثار الله" من مدينة كرمان الدور الأساس في هذه العمليات.

أما أصعب اللحظات التي عايشها القادة في الحرب هي لحظات فقد الأحبة وارتقائهم شهداء، والأصعب من ذلك إذا ما كان الشهيد السعيد يشكّل ركنًا وأساسًا في المواجهات. عندما استشهد "(حسن) باقري" و"(مجيد) بقائي"[3] شعرنا أنّ رحيلهما قد أحدث صدعًا في المعركة. لقد كان الشهيد باقري "بهشتي" الجبهة[4]، وكان أمثاله بمثابة قطب الرحى التي يستند عليها قادة الحرب للتخلّص من ضغوط العدو وإيجاد الحلول.

---

[1] مقابلة مع مجلة "نداء الثورة" في العام 1990م.

[2] توجّه "حميد ايرانمنش" إلى كردستان مع انطلاقة بوارق اليقظة فيها، وبسبب الشجاعة والمواقف الجريئة التي أبداها هناك بات لقبه "حميد الفدائي" (أو المغوار). وبعد عودته من كردستان توجه إلى جبهات الجنوب، وأوكلت إليه مسؤولية قيادة إحدى كتائب فرقة "41 ثار الله".

3 29 كانون الثاني 1983، منطقة فكه.

4 نسبةً إلى الشهيد بهشتي رئيس حزب الجمهورية الإسلامية ورئيس السلطة القضائية ومجلس الثورة الإسلامية، وكان له دور أساس في إعداد الدستور الإيراني تحت نظر الإمام الخميني قدس سره. وقد استشهد في تفجير وضعته منظمة منافقي خلق أثناء إلقائه خطابًا في مقر الحزب، واستشهد معه 72 من شخصيات وكوادر الثورة والحزب.

في بعض الأوقات، كانت شهادة أحد القادة تؤثر بي كما لو أنها شهادة أفراد كتيبة بأكملها. ومن أمثال هؤلاء، كان الشهيد القائد "الحاج يونس زنكى آبادي"[5] الذي كان الأمل لفرقة "ثار الله". كان عاشقًا لأصعب الأعمال في الجبهة. من الذكريات التي لا أزال أستحضرها من عمليّات "والفجر8"، حيث لم تكن حينها أطراف منطقة "رأس البيشه" قد سقطت بعد، علمنا أنّ القوّات العراقية شنّت هجومًا مضادًا من الخلف لجهة مرفأ "قشله"، إلّا أنه بعد وقت قصير أخبرنا أنّ هناك لواءً من القوّات العراقية تمّت محاصرته وتمكنّا فيما بعد من أسر جميع جنوده.

تقرّر في اليوم الثاني من عمليّات (كربلاء 1) في منطقة مهران، أن نتحرك من نقطة "إمام زاده حسن" باتجاه "قلاويزان" لتحرير منطقة مهران، كانت فرقة "ثار الله" إلى جانب فرقة "رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم" تخوضان مواجهات عنيفة مع قوّات صدام على هذا المحور. أما نحن التحقنا بمساعدة قائد فرقة "رسول الله" لإلحاق القوّات بالخط الأمامي للجبهة. انبلج الضوء ونحن نسير في جو مليء بالغبار والرمال، سرت إلى الأمام بدراجتي فرأيت مجموعات كبيرة تتقدّم باتجاهنا، في البداية اعتقدت أنّهم من قوّاتنا، لكن عندما أصبحت قريبًا جدًا ولا يفصلني عنهم سوى عدة أمتار، أدركت أنهم من قوّات صدام، لم يكن أمامي فرصة حتى أستدير بالدراجة فقفزت عنها ورحت أركض باتجاه سواترنا حتى وصلت إلى نقاط تموضعنا، فيما بعد تمكنّا من أسر جميع هذه القوّات التي كانت على مقربة منّا.

مقدّمة كتاب جوهرة هامون بقلم الشهيد الحاج قاسم سليماني:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

آل عمران 170

نحمد الله الذي وفّقنا لنخطّ على صدر هذه الصفحات البيضاء كلماتٍ نُسجت بغزْلِ العاطفة والمشاعر الرقيقة، لتظهر أصالةً وبراءةً، أشبه بقداسة النور والغيث وكرامات الأئمة عليهم السلام.

صحيح أنّ المجال لا يتّسع لأداء حق أولئك الذين عرجوا إلى فلك الأفلاك، ممتطين صهوة الشهادة القانية، لكنه شرّع لنا كوّة نطلّ منها على المعرفة الوارفة التي غَرَست في أذهاننا معاني ومفاهيم العزّة والعظمة لثلّة من رجال الله الأخيار.

وقد اجتمعنا في أكثر مراحل التاريخ جلالة، أي عصر الثورة الإسلامية، لنكرّم ذكرى رجالٍ أطهارٍ تناثرت أكمامهم لتتفتح أكمة أخرى، وقد ازدانت حياتهم، بل ومماتهم بالصلابة والإعجاز الواهب للحياة. ولا عجب إن لمسنا هذا الكمال والفخر والكبرياء والإعجاز في شخصِ قائدهم - الذي بفضل أنفاسه القدسية ونهضته الإلهية – كُتب لهذه الأمة البقاء والاستمرار. وقائدٌ كالخميني الذي هو بحقٍّ روح الله، يتطلب موالين كهؤلاء هم رهن إشارته، يتنافسون

5 قائد لواء "الإمام الحسين عليها السلام"، في فرقة "41 ثار الله" والذي استشهد خلال عمليّات "كربلاء 4" في شهر دي1365 (ك1 1986-).

على مسرح العشق في نثر جواهر أرواحهم، ويصلون إلى أعمق وأجمل المفاهيم الإنسانية والإلهية في سوح مقارعة الحق للباطل، وكأنّ مشهدًا أقدسَ وأعمقَ وفاءَ لأصحاب الإمام الحسين عليه السلام، يتكرّر في زماننا وأرضنا!
إنّ الذكرى الندية لهؤلاء المتواضعين الذين التحقوا بالملأ الأعلى والذين عبقتْ حياتهم بالفخر والحيوية، قد أسّست لانعقاد هذا المؤتمر التكريمي لشهداء الحرس الثوري و8000 من شهداء محافظتي كرمان، وسيستان وبلوتشستان، وما هو إلا فسحة للوفاء ببعض دَينٍ في رقابنا لأولئك الأشاوس الشامخين في تاريخ الإسلام، ولا شك أنّنا عاجزون عن الإيفاء بذلك في خضمّ هذه اللجج المتلاطمة.
لا يسعنا هنا سوى أن نتوجه بالشكر لكل من ساهم بنحو في كتابة وتأليف ونشر كتب ومذكرات شهدائنا العظام، خاصة مؤلف هذا الكتاب وكل من ساهم في نشره وتوزيعه.
أتمنى أن تتبع هذه الخطوة خطوات أوسع وأكمل، في هذا الطريق المحفوف بالمشاق، لتكريم شهدائنا. وحقًا، نبقى قاصرين عن تحقيق ذلك مهما حاولنا.
وفي النهاية، أهدي سلامي وإخلاصي لقائد ثورتنا المبجّل الحامي الأكبر لقيمنا.

قائد فرقة "ثار الله 41" والأمين العام للمؤتمر
سردار قاسم سليماني

شهرة عالمية:

قلّما سمع أحد السياسيّين أو العسكريّين الغربيّين باسم "قاسم سليماني" حتى نهاية العقد التاسع الميلادي، ولكن مع بداية الحرب في سوريا وطول أمدها، وخصوصًا مع المواجهات في العراق أضحت شهرة هذا القائد عالميّة. وبات الغربيّون الآن في مواجهة مع كابوس مختلف عن التخيّلات الهوليوودية، كابوس مكروه لهم ولا سبيل أمامهم سوى تقديره[6] ! يقول "جون ماغواير" الضابط السابق لوكالة الاستخبارات الأمريكية في العراق: "إنّه أقوى مسؤول سرّي في الشرق الأوسط... ولا أحد يعرفه".

ولكن نحن نعرف الحاج قاسم. إنّه رفيق جهاد "الحاج همت"، الرفيق المتواضع والغير مرائي، ورفيق "مهدي باكري" و"علي هاشمي"، قادة في أذهان شعب إيران حفّت أخلاقهم وخصالهم بالملائكة، واستقرّوا عند حدود الأسطورة. قادة ارتبطت أسماؤهم، في الذاكرة التاريخية للشعب الإيراني المسلم، بالجهاد الأكبر أكثر من الجهاد الأصغر.

يعتبر الإيرانيّون الحاج قاسم واحدًا من تلك الثلّة وبقية تلك الأرواح المشرقة، ولهذا السبب تحوّل طوال السنوات السابقة إلى شخصية وطنية. لا يعرف الغربيّون - خصوصًا اليانكيز[7] - صورة الحاج قاسم هذه جيدًا، ولهذا فإن ابن الصحراء بالنسبة إليهم سرّي ومرعب. بالنسبة لرعاة البقر الأمريكيين، إنّ مصداق القائد العسكري هو إمّا الجنرال رومل أو الجنرال أيزنهاور. وهذان بلحاظ النماذج العسكرية ليس بينهما تفاوت كبير، باستثناء أنّ جبهاتهما متفاوتة. لكن قاسم سليماني بنبوغه العسكري المحيّر، حينما يرفع يديه نحو السماء ويقف للصلاة فإنّه يتمايز عن كلّ الجنرالات المعروفين في تاريخ العسكر الحديث. في منطق رعاة البقر ليس له تعريف، وكأنه قد جاء من عالم آخر. هو رعب محض، وكابوس يجب أن يخرج لقتاله "باتمان" و"سوبرمان" و"سبايدرمان"، وهؤلاء ليسوا سوى شخصيات خياليّة.

---

6 أو مدحه والإعجاب به.
7 كلمة هندية تعني الشخص الإنكليزي، أو تُطلق على القادمين من الولايات المتحدة.

ومن هنا يتّخذ مستقبل التاريخ مساراً مختلفًا بعيدًا عن كلّ الحسابات، مستقبلًا ستكون فيه الصلاة والعبودية لله أكثر استراتيجياته العسكرية أصالة. وبالطبع، هناك الكثيرون ممّن سيعتبرون هذه الجمل شعارات ودعايات، لكن ممّ الخوف؟ فليقولوا ولينسجوا ما يشاؤون، فإلى الآن، قائدنا المقيم للصلاة هذا هو الذي مرّغ أنف الشيطان بكل بارجاته وعظمته الحديدية بالتراب. ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**﴾.

من كتاب: الهداية الثالثة

عند الفجر، نهضنا وذهبنا لتحضير الكتائب للمواجهة، فوجدنا دبابات فرقة "ثار الله" بالقرب منا. قلت للأخ "سليماني": "حسنًا قبل أن تشرق الشمس أرسل الدبابات لتتقدم".

أي دبابات، أوليست هذه لك؟

نظرت إلى تلك الدبابات ثانية، وقلت له بتعجب: "كلا ليست لي. أين كانت دباباتنا؟".

وقبل أن يتضح نور النهار تقدّمنا بحذر، فأمسك "سليماني" بيدي وقال: "توقّف لعلها دبابات عراقية". ثم نظر ثانية وقال: "والله إنها عراقية".

ناديت "أصغر ماهوتي" الذي كان يعدّ فصيلًا ليتقدم، وقبل أن يصل إلينا قلت له: "أين فصيلك؟".

ظنّ أن مقصودي هو لماذا تأخرت ولم ترسلهم بعد، فارتبك وقال: "سأرسلهم الآن".

- قل لهم ليترجلوا.

- كلا سأرسلهم الآن.

- يا أخي أين سيذهبون؟ إذا كانوا يبحثون عن العدو، فها هو العدو.

- أوليس هؤلاء من فرقة ثار الله؟

- قائدهم ها هنا، وهو يقول إنها دبابات عراقية.

ركض نحو قواته وطلب منهم التموضع هناك، وجرى الاشتباك على مسافة لا تزيد عن مئتي متر. ما إن بدأ الإخوة بإطلاق النار وقذائف الآر بي جي، حتى تفرقت القوات العراقية، وقام بعضها باستهدافنا.

عمليات كربلاء:

ففي عمليات "كربلاء الخامسة"، عندما سمعنا صوت الحاج "قاسم سليماني" قائد فرقة "41 ثار الله" عبر الجهاز وهو ينادي الإخوة في المقر صارخًا: "لقد حاصرنا العراقيون، إنهم على بعد أمتار منّا ... لا أظن أنّه سيبقى أحد منّا حيًا ... نلتقي يوم القيامة". حينها أول اسم تبادر إلى ذهني هو "مرتضى جاويدي".

أخذت الجهاز وناديت: قاسم، قاسم، جعفر.

- جعفر معك أرسل.

- أرسلت "أشلو" إليك.

- افعل ما يمكنك، لكن بسرعة يا جعفر.

كان مرتضى ينتظر كلامنا، فأجاب: "لا تقلق، سأصل".

أجاب وكأنه على بعد مئة متر منه، في حين أنّ المواجهة كانت قائمة خلف نهر جاسم في منطقة "الأضلاع الخمسة". حيث أشكل الأمر، وكان العبور لاختراق السواتر النونية صعبًا، توجه مرتضى بقواته سريعًا، وطردوا القوات المعادية، وأنقذوا قوات فرقة "ثار الله" من الحصار.

ظهرًا، كنتُ لا أزال أتابع وضع كتيبة "الفجر" عبر الجهاز، حين أُحضر الغداء. وقف أحد أفراد التعبئة بيني وبين الطعام وقال: "عذرًا يا حاج، ليس لك حصة ها هنا، عد إلى الخلف".

تعجبتُ من كلامه، فأنا قائد الفرقة، وهذه الجبهة كلّها تحت إمرة فرقتي، لكني لا أستطيع أن أفعل ما أريد مع التعبويّين، لذلك سألته بمحبة: "ولماذا؟".

- أنت قائد الفرقة، وإذا ما استشهدت هنا - لا سمح الله-، فستضعف معنويات الجميع، أرجوك عد إلى خلف الجبهة، ودعنا نتناول غداءنا براحة.

أكمل كلامه وذهب، وضحك الإخوة وقالوا: "ليس في اليد حيلة يا حاج".

عدتُ إلى الخلف لأستريح قليلًا ثم أعود، وفي الطريق مررت على أحمد كاظمي، فأصرّ عليّ كي أبقى وأتناول الغداء، لكني اعتذرت وذهبت إلى الإخوة في المقر، ما إن وصلت حتى بلغني أن "مرتضى جاويدي" قد استبسل في القتال واستشهد. لم أستطع الجلوس إلى مائدة الطعام، بل أجهشتُ بالبكاء، ومن غير المستحسن البكاء أمام

من كتاب: اولئك الثلاثة والعشرون فتى

يوم شاقّ

كانت كليّة الهندسة في "كرمان" مركزًا لمتطوّعي الجبهة، وكان يتوافد التعبويّون إليها من جميع مدن وأقضية محافظة "كرمان". حان يوم الانطلاق نحو الجبهة، فأمر "قاسم سليماني"[8]، الشابّ المليح وقائد لواء "ثار الله"، باجتماع جميع القوات في ملعب كرة القدم. جلسنا على أرض الملعب الأخضر في مجموعات من 50 عنصرًا. راح "قاسم سليماني" يجول بين القوّات ويقيّمها، وسار خلفه "ميثم أفغاني"[9]، طويل القامة عريض المنكبين، لو أنّه تقدّم "سليماني" بخطوة لاعتقدنا أنّه هو القائد لهيبته وطول قامته.

كان الحاج "قاسم"، "ميثم" وعدد آخر من الحرس يتقدّمون نحونا، فاضطرب قلبي. لقد جاء ليغربل القوّات. وبالطبع، فإنّ صغار السن سُرعان ما يسقطون من غربالِه. كان يُخرجهم من صفوف المقاتلين، ويقول لهم: "اذهبوا إلى الثكنة وإن شاء الله ستشاركون في البعثة القادمة". كلّما اقترب منّي كلّما ازداد اضطرابي. فمن القسوة بمكان إخراجي من صفوف المقاتلين لتبقى حسرة المشاركة في العمليّات تنغّص عليّ أيامي. كم كرهت الحاج "سليماني" حينها، فمن أعطاه الحق ليقرر عنّي، هل أقاتل أم لا؟ لو كنت غير مؤهّل للحرب، فلماذا أرسلونا في اليوم الأول إلى ثكنة "القدس" لتلقّي التدريبات العسكريّة؟ ولو كان من المقرر أن لا نشارك في المعارك، فلمَ كان "يونس زنكي آبادي" مسؤول التدريب يُطلق في الساعة الثالثة فجرًا صفّارة الاستعداد لنكون حاضرين خلال 4 دقائق بكامل السلاح والعتاد في باحة الثكنة الّتي لفّها الصقيع؟! ولماذا علّمنا الشيخ "بهائي" فكّ وتركيب السلاح مرّات ومرّات؟ ولمَ كلّ ذلك التشدّد من قبل السيد "دامغاني" في حقل الرماية؟ ولمَ يجبرنا السيد "مهرابي" الساعة 1 ظهرًا على البحث عن "خرطوشة" في الصحراء قرب حقل الرماية، عند أطراف جبل "صاحب الزمان"، ويهدّدنا في حال لم نجدها بالحرمان من طعام الغداء

[8] قائد لواء ثار الله آنذاك والقائد الحالي لفيلق القدس.

[9] من قادة وشهداء "كهنوج" في محافظة "كرمان"، شارك واستشهد في عمليات "بيت المقدس" لتحرير "خرمشهر".

الّذي لم يكن يتعدى 4 حبّات تمرٍ؟! كنت أودّ أن يعلم الحاج "سليماني" أنّني فقط قصير القامة، وأنّني في السادسة عشر من العمر، ولست طفلًا صغيراً كما يظنّ. كنت أودّ لو أمتلك جرأة الوقوف أمامه لأقول له: "هل تعلم أيّها السيد المحترم أنّني خدمت مدة شهرَيْن في الجبهة سابقًا؟! وأنّي كنت أحرس على مسافة قريبة أسمع فيها أصوات العراقيّين، حتى إنّ قذيفة هاون قد انفجرت بالقرب مني؟"، لكنّني لم أجرؤ على قول ذلك.

كان الحاج "قاسم" يرتدي زيّا أحبّه، وكان ودوداً عكس غيره من القادة العسكريّين، ينظر إلينا بعطف وتواضع، لكنّه في الوقت نفسه، لم يعر اهتماماً لاعتراضات المبعَدين والمخرَجين من صفوف المقاتلين.
وصل الحاج "قاسم" إليّ فشعرت أنّني على حافة الهاوية. فكرت في نفسي: "ليت لي لحية!". وحسدت الجالس بالقرب مني لأنّ لديه لحية وشارباً أيضًا. اللّعنة على هذا السنّ الّذي سيوقعني في المشاكل! لم تنبت شعرة واحدة على وجهي بعد، وحتّى اللّون الأخضر فوق شفتي لن يشفع لي. قررت أن أدير وجهي للناحية الأخرى كي لا يُكشَف أمري، لكن ماذا عن قدّي؟ كنت الأقصر في الصف، وأشبه بسنّ المشط المكسور وسط أسنانه السالمة.
رفعتُ نفسي بصعوبة على ركبتَيّ قليلًا، ليس لدرجة يظنّ معها الحاج أنّني أقف، ولا لدرجة تُظهر أنّني جالس، بل بين بين، واستعنتُ بحقيبة الظهر لتحقيق هدفي، وهو خداع الحاج "قاسم سليماني". فوضعتها في الجهة الّتي سيمرّ بها، وأدرت رأسي لأنظر في الجهة المعاكسة. وقد ساعدتني القبعة المعدنيّة على ذلك، حيث إنّ جميعها بحجمٍ ومقاسٍ واحد. أظنّ أنني في هذه الخطة قد حللت مشكلة طولي ولحيتي أيضًا، لكن يبقى الأمل بعدم تدقيق الحاج "قاسم"، ولحسن الحظ لم يفعل. ومرّ بي دون أن أسقط من غربالِه، بل بقيت في اللّائحة الّتي خوّلتنا في محطّة السكّة الحديديّة ركوب القطار نحو الجبهة.

المُبعَدون

من زاوية ملعب كرة القدم الأخضر، تعالت أصوات استنكار المُبعَدين. بعضهم كان أكبر سنًّا وحجمًا منّي. حينها أدركت كم كانت خطّتي عظيمة، وشعرت براحة البال لأنّني في هذا الجانب وليس ذاك! كان "سلمان زاد خوش" أحد المُبعَدين من قرية"خانوك"، كاليائس الّذي لم يعد يعرف الخوف أو المهابة من أحد، يبكي ويصرخ بوجه الحاج "قاسم" قائلًا: "من تكون حتّى تمنعنا من الدفاع عن ديننا ووطننا؟ لقد تدرّبنا وجهدنا في ذلك كثيراً. أقسم إنّه ليس من المروءة بمكان منعنا من الذهاب". في النهاية، نطق "قاسم سليماني" وقال: "عندما يقع الصبية في الأسر، يرغمهم العراقيّون على القول إنّهم أجبروا على الذهاب إلى الحرب". تابع "سلمان" وبلهجة قويّة: "في الحقيقة، إنّ الصبية أكثر شجاعة من الكبار، حتى إنّ كثيراً من الكبار المدّعين لا يعرفون من القتال والعمليّات سوى الثرثرة والكلام!". لا يملك "قاسم سليماني" كثيراً من الوقت ليجادل أو يقنع "سلمانًا"، لذا أعرض عنه، وقد اغرورقت عينا "سلمان"بالدموع حائراً مذهولًا قرب الملعب. مُبعَدٌ آخر هو "علي رضا شيخ حسيني"، في 16 من العمر. وخلافًا لـ"سلمان"، خرج من الصف بكلّ هدوء وصلابة دون أيّ اعتراض، يبدو أنّه غير مصرّ على الذهاب. لكن كان لهدوئه هذا سرّ آخر! عندما خرج من الصف، حمل حقيبة الظهر واتّجه نحو المنامة. وعندما عاد، كان يرتدي زيّا عسكريّا أخضر بلون عينَيه الخضراوَيْن. كم كان أنيقًا بشعره الأشقر وزيّه الأخضر، وكم منحه ثقة بالنفس لا تخفى على أحد. أدركت أنّه، وعلى الرغم من صغر سنّه، في الحرس الثوري، وبعد أن ارتدى هذا الزيّ، عاد وسجّل اسمه في اللّائحة دون أيّ مشكلة تُذكر.

عجّت محطّة القطارات بالمودعين، وللمرة الثانية نشاهد المصاحف، المرايا ورائحة البخور الّتي تزكم الأنوف. في مراسم الوداع في المحطّة، وعلى عكس ما كانت عليه في "جيرفت"، لم أكن وحيدًا هذه المرة، بل كان "حسن" و"أكبر" معي قبل الانطلاق. الباقين، لأنهم سيفقدون معنوياتهم، لذلك اختليت بنفسي وبكيت وأنا أنوح بشدّة مدة ربع ساعة، ثم غسلت وجهي وعدت إلى الإخوة بحثًا عن جسد مرتضى لأني كنت أعلم أنّ العدو لن يتخلّى عن جسده، لكن الإخوة طَمأنوني أنهم سيأتون بجسده مهما كلّف الأمر.

لقد ذهب مرتضى، وبقيت أنا والحاج "قاسم سليماني" يحدّثني بحسرة عن قتال مرتضى الأسطوري وعن استبساله.

حميد الفدائي

"حميد إيرانمنش"[10]، من بلدة "زرند" في محافظة "كرمان"، شارك في عمليات "حصار عبادان، بستان والفتح المبين". وقد أبدى شجاعة وصلابة قلّ نظيرهما، فلُقّب بـ"الفدائي حميد". كان الجميع يرجو الله أن لا يكون "حميد" مدرّبهم العسكري، إذ إنّه كـ"فياض" قاسٍ ومتزمّت جدًّا. "فياض" هذا، هو أحد مسؤولي التدريب، وذكر اسمه كفيل بجعل أيّ مقاتل يرتجف رعبًا.

في أحد الأيام، انتشر خبر في الثكنة انتشار النار في الهشيم: "جاء حميد الفدائي"، ولم يطل الوقت قبل أن تصطف الفصائل في الباحة قرب أبنية الثكنة. لم يكن "حميد"طويل القامة كثيرًا، لكنّه يتمتّع ببنية قوية رياضيّة ونظرات ثاقبة حادّة، غير ما اشتهر به الإخوة في الجبهات من مرح وعطف. أمرنا بالجلوس والوقوف، ولمّا لم نفعل ذلك كما يحب ويتوقع، رمقنا بنظرات ذات مغزى، زمّ شفتَيه وراح يهزّ رأسه كمن يقول: "حسنًا أيّها الكسالى، يبدو أن لا عمل لكم غير الأكل والشرب، سأريكم!".

تلقّفنا تلك النظرات مدركين أنّه سيَخضعنا لتدريبات واختبارات صعبة. في الحقيقة، كان صائبًا فنحن خلال إقامتنا في "الأهواز"، كنّا بدل المشاركة في التمارين الصباحية نذهب لشراء "الحليم"[11] والخبز الطازج، وبعد الظهر نتناول العوامات على ضفة نهر "كارون"، حتى إنّني ذهبت إلى السينما. بيد أنّ "حميدًا" قد أدرك كلّ ذلك وقال بصوت عالٍ: "يبدو أنّكم جئتم للتنزّه في الأهواز صحيح؟"، صمتنا فتابع كلامه: "سنرى من منكم جاء للتنزه ومن جاء للحرب!".

بعد هذا الوعيد، أشار إلى عمود كهرباء بعيد وقال: "سأعد إلى 10 وعليكم الركض نحو ذلك العمود والعودة بسرعة والويل لمن يتأخّر منكم".

تردّد صدى صفارة "حميد الفدائي" بين الأبنية المجاورة، وجرت العناصر بسرعة نحو العمود. بالطبع تأخر كثيرون في العودة إلى نقطة الانطلاق، فأيقن "حميد"أنّنا تنابل كسالى.

كان المطر قد هطل قبل أيام من وصولنا إلى الثكنة، فتجمعت المياه في نقاط مختلفة من الأرض، مشكّلةً مستنقعات نمت على سطحها طفيليات خضراء. انتظر "حميد" عودة آخر عنصر ثمّ قال بحزم: "والآن مع سماع الصفارة على الجميع الزحف في الماء".

---

[10] ورد اسم حميد الفدائي في كتاب "قاسم سليماني ذكريات وخواطر"، ترجمة: مركز المعارف للترجمة، وصَدَرَ عن دار المعارف الاسلامية الثقافية- حيث يتحدث الحاج "قاسم سليماني"، خلال الفصل الأول منه، عن بطولات وشجاعة "حميد".

[11] طعام شبيه بالهريسة.

انطلقت صفارته ونحن في حيرة من أمرنا، أهو جاد أم يمزح؟! وتبدّدت حيرتنا باليقين بسحبه أقسام الـ"كلاشينكوفAK"، وإطلاقه الرصاص الحيّ عن جانبَينا. على الرغم من خوفنا من تهديدات "حميد" الفدائي ورصاصاته، لم نكن على استعداد لتلويث ملابسنا العسكريّة الجديدة بأوحال المستنقع، لذا عندما وصل زحفنا إلى بقعة ا لوحل، حرفنا مسيرنا كي لا نبتلّ. هذا التصرف وعدم الانصياع للأوامر، زادا من غضب "حميد" الّذي راح يصرخ صراخًا متواصلًا، وأمرنا بالعودة إلى نقطة الانطلاق. كانت شفتاه ترتجفان حنقًا وغضبًا، وما أن أراد إصدار الأمر الثاني الّذي، وبحسب ظنّه، سيؤدّبنا، حتّى توقفت في المكان سيارة تويوتا ستايشن بيضاء تحمل لوحة الحرس الثوري. ترجّل منها عدد من مسؤولي الحرس، وما أن نزل الشخص الجالس في المقعد الأمامي، حتّى سرت همهمة بين العناصر. إنّه "قاسم سليماني" قائد لواء "ثار الله".

كان الحاج "قاسم" مبتسمًا كعادته، ألقى التحية على المقاتلين، فتذكرت ذلك اليوم في كليّة الهندسة عندما اقترب منّي ليخرجني من صف المتطوعين. شكونا إليه تصرفات "حميد الفدائي": "أخ سليماني! إنّه يضايق المقاتلين دون مبرّر"، وقال آخر: "لا يوجد حمامات هنا، وهو يطلب منّا النزول إلى الأوحال والمياه الآسنة"، وأضاف آخر: "كيف لنا أن نصلي إن تلوثت ملابسنا؟"، وأضاف آخر: "عندما دربنا فيّاض كان يسبق الجميع في النزول إلى المستنقعات، لكن السيّد حميد يقف جانبًا ويطلب منّا النزول". كان "حميد"يتآكل غضبًا. سمع الحاج "قاسم" الشكاوى، لكنّه كان أذكى من أن يصغّر شأن القائد أمام عناصره فقال: "عليكم بإطاعة أوامر قائدكم فهو يريدكم مقاتلين أشداء أثناء المعارك، لا أن ينتقم منكم!".

عندما رأى "حميد" أنّ كلام الحاج في صالحه، قال: "هؤلاء لا يصلحون للحرب، يخافون من اتّساخ ملابسهم، فكيف إذا اضطروا لنزول المستنقعات العميقة ليلة العمليّات؟!" أيّد "قاسم سليماني" كلامه، ثمّ استقلّ السيّارة وغادر بعد أن أسرّ ببعض الأمور إلى القادة و"حميد الفدائي".

بقينا نحن و"حميد" وبقعة المياه الآسنة. فبعد أن حصل على دعم "قاسم سليماني"، رفع سلاحه بيده وقال: "إذًا تخافون أن تتسخ ملابسكم! هل تعتقدون أنّكم في زيارة أحد أقربائكم؟ حسنًا، سأنزل إلى الوحل أولًا، والويل لمن لا يتبعني".

حمل سلاحه من طرفَيه، انطلق بخطوات سريعة واسعة، كرياضي في مسابقة القفز، وما أن اقترب من الماء حتّى وثب كمن يريد الغطس في حوض السباحة، فنزل في الماء القليل العمق على ركبتَيه ومرفقَيه وراح يزحف بسرعة كبيرة. عندما نهض في الجهة الأخرى للماء، كانت الطفيليّات الخضراء، الديدان والأوحال تلوّثه من رأسه إلى أخمص قدميه. رمى نحونا رشقات من سلاحه، ثمّ قال: "هيا انطلقوا". حينها لم يجرؤ أحد على عصيان الأمر وزحفنا جميعًا في المياه تمامًا كـ"حميد".

الترحيل نحو البصرة

ركبنا الجيب العسكري ذاته. في الداخل، أزالوا العصبة فرأينا أنّنا نتجه غربًا. وصلنا قبل غروب الشمس بساعتَين إلى سهل منبسط، جُمع فيه أسرى كتيبتنا والكتائب الأخرى موثوقي الأيدي على الأرض. نزلنا وجلسنا معهم، كانوا في وضع مزرٍ، ثياب ممزّقة وشعر مبعثر، وجوه متربة وأبدان دامية، منهم الجالس، ومنهم الممدّد على الأرض وسط حلقة من الجنود العراقيّين ذوي القبعات الحمراء.

بدايةً، لم أميّز أيًّا منهم، لكن رويدًا رويدًا عرفت "محمّد رضا حسني سعدي" معاون كتيبتنا، وفي الجانب الآخر "مجيد" و"رسول ضيغمي" ابنا العم الكرمانيّان، "محمّد رضا أشرف"، "علي محمدي" و"سلمان زاد خوش". اجتمع رفاق الخيمة ثانيةً، ولم يكن ينقصنا غير "محمود محمّدي" و"أكبر دانشي". أُصيب "حسني سعدي" برصاصة في البطن، كما أصيب كلّ من "مجيد" و"سلمان" بشظيّة.

وصلتْ قبيل المغيب 10 شاحنات "آيفا"، فتعالت همهمات الجنود العراقيّين، وما لبث أن صدر الأمر بترحيل الأسرى.
ساقونا بعنف إلى الشاحنات، ومن يتأخر عن الركوب، يُضرب بأعقاب البنادق على وجهه وعنقه، كما أُلقي الجرحى في قعر الشاحنة دون أيّ اكتراث لحالهم الصحيّة. حاولت أن لا أبتعد عن "حسن" فأسرعنا معًا نحو أوّل شاحنة وركبنا فيها.
عندما امتلأت الشاحنة بالأسرى، صعد إليها أحد الجنود العراقيّين المسلّحين، وجلس بالقرب منّي. كان في الثلاثين من العمر تقريبًا، وعلى عكس باقي الجنود، كان أبيض البشرة ذا وجنتَيْن حمراوتَيْن ممتلئتَيْن، وقد فاحت رائحة عطره في الأرجاء. ما إن تحركت الشاحنة حتّى سألني بالفارسيّة: "ما اسمك؟"
أحمد.
كانت نظرته إليّ تنمّ عن الشفقة، وتفحّصني بعينَيْه من رأسي إلى أخمص قدميّ، ثمّ هزّ رأسه كأنّما لسان حاله يقول: "أسفي عليك لأنّك قاتلت وأُسرت وأنت ما زلت صغير السنّ".
نظرات الشفقة هذه ذكّرتني بالجندي العراقي الأول الّذي التقيته عند الساتر الترابي. نظرات الشفقة من الجندي الأول، نظرات التعجّب من الجنود العراقيّين منذ حوالي الساعة، كلام القائد العراقي في الدشمة، وقلب هذا الجندي الشفيق حارس الشاحنة، جعلني أتأكّد أنّ ملامحي وقامتي لا تدلّان على أنّني مقاتل، وربما كان الحق مع الحاج "قاسم سليماني" عندما أراد إخراجي من صف المتطوعين. لكنّ الأوان قد فات. احترمت آراءهم جميعًا، لكنّني أظنّ أنّ القامة والبنية الجسدية القوية كانتا مطلوبتَيْن في الحروب القديمة الّتي يتوجب فيها على المحارب ارتداء الدروع الحديديّة والخوذات وحمل السيف. لكن في أيامنا هذه، فإنّ الشبان أمثالي يصبحون بلباس عسكريّ فضفاض، وحذاء رياضي مع "كلاشينكوف AK"، ودورة تدريبيّة مكثّفة لشهر واحد، مقاتلين يشاركون في فكّ حصار آبادان وتحرير بستان وسوسنكرد في عمليّات الفتح المبين، ويستعدّون لتحرير خرمشهر من قبضة الغاصبين في أقرب فرصة.
كانت الشاحنة تنهب الأرض نهبًا متجهة إلى الغرب. في لحظات الغربة تلك، لربّما كان من الطبيعي بل ومن المنطقي أن يتملّكني الخوف من المصير الّذي ينتظرنا، أضف إلى ذلك غمّ البعد عن البيت والعائلة مع احتمال عدم رؤيتهم ثانية، ثمّ تصوّر التعذيب الّذي سنلقاه في الأسر، وغيرها من الشجون والأحزان. لكن في الحقيقة، لم أفكّر في أيّ من هذه الأمور في تلك اللّحظة.

كنت أفكّر في الطريق الّتي سلكوها بنا، والّتي لا نهاية لها، بالسهول والسهوب المحيطة الّتي تسلكها آليات العراقيّين، بالدشم والمتاريس الّتي بناها الأعداء هنا وهناك، وكأنّما هذه الأرض ليست إيرانيّة! في سنّي تلك، وعلى الرغم من الظروف الصعبة الّتي أمرّ بها، كنت أفكر في ما يفعله هؤلاء الغرباء في أرضي. كيف سمحوا لأنفسهم بالدوس على تراب وطني؟ وكلّما سرنا أكثر كلّما ازددت غيظًا. متى نصل إلى الحدود؟ وكيف تمكّن العدو من احتلال كلّ هذه المساحات الشاسعة؟ لقد تملّكني الحسّ الوطني في تلك اللّحظة بنحو غريب.
خال أحمد.

كان ذلك صوت الجندي العراقي الجالس قربي، التفتُّ إليه، كان يريد أن يقول شيئًا ما، لم ينتظر جوابي وقال: "أشكر الله أنّك لم تُقتل".

عندما قال ذلك أدركت أنّه ليس عربيًا، تابع قائلًا: "على الأقل لن تقتل في الأسر، أليس هذا أفضل؟". وكي أظهر التودّد له قلت: "أجل"، فأضاف: "ففي يوم ما ستنتهي الحرب ويطلق سراحك، بينما لو قُتلت فماذا كانت ستفعل المسكينة أمّك؟!".
لم أملك جوابًا حينها، فمنذ 48 ساعة لم يغمض لي جفن، وأثقل النعاس رأسي والحُرقة عينيَ ودبّ الخدر في أطرافي من شدةّ الإرهاق. لكنّ الجندي العراقي ما انفكّ يحدّثني عن منافع الأسر وأنّه أفضل من القتل. كم وددتُ في تلك اللحظات لو كنت في مزاج جيّد، لأخبره أنّ ما تسمّيه "قتلًا" وتخاف منه بل وتخيفني منه، نسميه في بلدنا "شهادة"، وأنّ أحدًا لا يخاف منها، بل على العكس يتوسلون الله كي يرتقوا إلى ذلك المقام السامي. لكنّ النعاس والإرهاق لم يسمحا لي بالردّ بالشكل اللّائق، على الأقل تعبيرًا عن امتناني لمشاعره الإنسانيّة. فكيف بي بشرح الفرق بين الموت والشهادة؟

التفت الجندي الكردي العراقي العطوف لحالي وتعبي، قال جملة أخيرة وتركني وشأني:
- عندما نصل إلى البصرة سيقدّمون لكم الطعام والماء.
بعدها لم أعد أعي شيئًا. عندما مرّت الشاحنة فوق إحدى الحفر، ارتطم رأسي بالقضبان الحديديّة ففزعت من نومي، وكأنّما الجندي كان ينتظر هذه اللّحظة، فقال:
- خال أحمد! انظر هذه حقول نخيل البصرة، انظر ما أكثرها!
استمرّ عبور الأسرى بالقرب من حقول نخيل شبيهة بنخلات قريتنا الصيفيّة "موردان" الّتي كنّا نذهب إليها صيفًا لجني محاصيل البلح والحمضيات، وتداعت الذكريات.

فؤاد12

سرعان ما بدأت عملية تشكيل الملفات، فكان الأسرى يخرجون واحدًا تلو الآخر إلى الباحة، ويُلزمون بالوقوف جانب جدار السجن الاسمنتي قبالة عدسة المصوّر العسكري، ليلتقط له صورة فوتوغرافية فورية تضمّ إلى ملفه ويبدأ التحقيق الّذي لم يختلف عمّا كان عليه في "البصرة"، وقد أضيف إليه سؤال مهمّ وخطير: "هل أنت من الجيش أو من الحرس؟". هنا أنقذت نصيحة "صالح" الأسرى الّذين توزّعوا بين الجيش والتعبئة. وصل دوري في التحقيق، وبخلاف باقي الأسرى، لم يتمّ استجوابي في الباحة، بل اقتادني العريف العراقي خارجًا، فمررنا في الزقاق الضيّق نفسه. يقع على شمال الزقاق مبنى شاهق أبيض اللّون فيه عشرات النوافذ، وعلى كل نافذة مبرّد للهواء، فاختلطت أصوات المبردات بعضها ببعض كخليّة النحل. ويقع على يمين الزقاق عدد من الغرف يتصاعد منها الصراخ والأنين، يبدو أنّها غرف للتعذيب. في الحقيقة، لقد داخلني الوجل لحظتها، إذ لم أدرِ إلى أين يقتادني وماذا ينتظرني.

[12] فؤاد سلسبيل: خائن من أعضاء حزب خلق عرب ـ لجأ إلى العراق وعمل مذيعًا في القسم الفارسي في الإذاعة العراقية. تعاون مع الضباط العراقيين وساهم في تعذيب وأذية الأسرى الإيرانيين. قيل إنّه يعيش حاليًا في الإمارات.

أدخلت إلى إحدى الغرف، وكانت في زاوية منها خشبتا "الفلقة" وعدد من السياط الغليظة، وفيها أيضًا سرير مرتّب بشراشف بيضاء يجلس على حافته رجل قصير القامة يدعى "فؤاد"، وكان يعبث بمفاتيح مسجّل الصوت الصغير ذي الغلاف الجلدي. جلست بحسب الأوامر على الأرض قرب السرير، وكان فؤاد يضع شريط كاسيت في المسجل.

"فؤاد"، في الثلاثين من العمر تقريبًا، مستدير الوجه حليق الرأس، أسمر البشرة، ذو جبهة برّاقة ضيّقة ورأسه أصلع يلمع عليه العرق، فيجفّفه بمنديل بين الحين والآخر. ميّزتُ أنّه قصير القامة، لكن عندما وقف تعجبت لمدى قصره، كما كانت ساقه اليمنى أقصر من اليسرى، لذا كان يعرج أثناء السير. عدّل ميكروفون آلة التسجيل ثمّ نظر إليّ وقال: "ما اسمك؟".

- أحمد.

- من أي محافظة؟

- من كرمان.

كان يتحدّث باللغة ا لفارسية بلهجة شبيهة بلهجة الإيرانيين العرب الّذين هجّرتهم الحرب، فقطنوا في مخيم اللّاجئين في كرمان، تابع "فؤاد":

- كم عمرك يا سيّد أحمد؟

- 17 سنة.

وصل قابس آلة التسجيل بالكهرباء، ثم حدّق في عينيَ بعصبيّة وتعجّب: "17 سنة؟"، فقلت: "نعم". انحنى فوق السرير ومال نحوي حتّى تلاصق رأسانا، وزكمت رائحة عطره أنفي وقال: "انظر! لا يهمّني كم هي سنّك الحقيقيّ، أريد أن أسجّل صوتك"، قال هذا وأشار إلى آلة التسجيل ثمّ أردف: "عندما أسألك كم عمرك؟ تقول 13 عامًا، وعندما أسألك لِمَ جئت إلى الجبهة؟ تقول إنّهم أجبروك على ذلك. مفهوم؟".

أُسقط في يدي، وتذكرت يوم التطوع وصوت "قاسم سليماني" عندما كان يُخرج صغار السنّ من الصف قائلًا:

- العراقيون يجبرون صغار السنّ على القول إنّهم أُجبروا على الذهاب إلى الحرب.

طلبت المدد من الله عزّ وجلّ والزهراء عليها السلام، تشجعت وقلت بحزم: "لكنّني في الـ17 من العمر كما لم يجبرني أحد على الذهاب إلى الحرب" وكأنّما لسعته النار! نهض من مكانه محاولًا كظم غيظه وغضبه متصنّعًا الشفقة وقال: "هذا ما حشاه الخميني أو الخامنئي أو رفسنجاني في رؤوسكم! اسمع يا ولد، لا أحبّ أن تُضرب فأنا مثلك إيراني، لكن إن لم تنفّذ ما أطلبه منك سأدع إسماعيل هذا (وأشار إلى العريف العراقي الضخم) عديم الرحمة يضربك ويسحقك".

كان "إسماعيل" واقفًا وبيده سوط غليظ. عندما علمت أنّ "فؤاد" إيراني زاد مقتي له وقلت: "لكن لِمَ عليّ الكذب يا سيّد؟". لم يعد يستطيع تصنّع الشفقة وقال: "لأنّني أطلب منك ذلك. عندما أطلب منك القول إنّك في الـ13 من العمر فعليك أن تفعل ذلك كولد طيب مطيع، وعندما أطلب منك القول إنّهم أجبروك على القدوم إلى الجبهة، فعليك أيضًا أن تفعل ذلك كولد طيب ومطيع، واضح؟". رجحت السكوت، فتلقّى "فؤاد" ذلك على أنّه علامة القبول والرضى. حمل الميكروفون وأراد تشغيل آلة التسجيل، عندها قلت له: "لن أقول إنّ عمري 13 عامًا، فأنا في الـ17 من عمري".

وضع "فؤاد" الميكروفون على السرير قرب آلة التسجيل، أخرج منديله من جيب لباسه المرقّط، مسح عرق جبينه وقال: "حسنًا بما أنّك لا تعي ما يُقال لك، اخرج كي لا تأخذ وقت البقيّة، سأناديك فيما بعد وأثبت لك أنّك في الـ13

من العمر، وأنّك جئت مكرهًا إلى الجبهة". ثمّ قال شيئًا لـ"إسماعيل" الّذي انحنى وأمسكني بقميصي من الخلف ثمّ دفعني خارج الغرفة.
جلست في الزقاق قرب الحائط، وجلس "سلمان زاد خوش" مقابلي بانتظار دوره، فسنحت الفرصة ليسألني عمّا يطلبه العدو منّا، وقال وهم يجرونه إلى التحقيق: "حتى لو قتلوني لن أقول إنّني في الـ13 من العمر، فعمري 20 عامًا.
وبما أنّ الأمر كذلك سأقول إنّني متزوّج أيضًا!".
بقيت خلف الباب لدقائق. أمكنني تخمين ما يطلبه "فؤاد" من "سلمان"، وقررت عدم الخضوع لإملاءاتهم. كنت مستغرقًا في هذه الأفكار عندما علا صراخ "سلمان" من غرفة التعذيب، حتّى إنّ صوت جلده بالسوط انتشر في الزقاق، كان يصرخ ويقول:"أنا متزوج فكيف يمكنني القول إنّني في الـ13 من العمر؟!".

لم يطل الوقت حتى أُلقي "سلمان" الّذي تسلل إلى القطار في محطة "كرمان"، واختبأ تحت المقعد، ليتمكّن من المشاركة في الحرب خارج غرفة التعذيب وآثار الضرب واضحة عليه. في تلك الأثناء، وصل "محمّد صالحي" يقتاده أحد الجنود العراقيين إلى التحقيق، وقد نال نصيبه أيضًا من الضرب والتعذيب، ثمّ رُمي خارجًا ليحين دوري ثانية. دخلت إلى الغرفة وجلست مكاني السابق. لم يعد "فؤاد" كما رأيته أول مرة، كان الشرر يقدح من عينيه، سألني بغضب: "هل ستقول إنّ عمرك 13 عامًا؟". كانت فرائصي ترتعد خوفًا، إذا قلت إنّ عمري 13 عامًا، وإنّني أُكرهت على القدوم إلى الجبهة، فسأبتلى بعذاب الوجدان وباعتقادي سأكون خائنًا لوطني ودماء رفاقي الشهداء، وإن أنكرت، فمصيري محتوم على يد "إسماعيل". أردت أن أجرّب حظي ثانية، طأطأت رأسي وقلت بهدوء: "لا، فأنا في الـ17!". وضع "فؤاد" يده تحت فكي ورفع رأسي، فالتقت عيناي بعينَيْن تقدحان شررًا. حملق بي لحظة ثمّ التفت إلى العريف "إسماعيل" وأشار له. فجأة، سقطت ضربة قوية بين كتفي عجزت معها عن التنفس لثوان عدّة، ثمّ تلاحقت الضربات على جسمي ورأسي ووجهي. سقطت على الأرض ورحت أردّ بقدمي ويدي الضربات عن وجهي وعينيّ.

وقف الخائن "فؤاد" يراقب مشهد الضرب، وبعد دقائق أمر "إسماعيل" بالتوقف، فتراجع "إسماعيل" لاهثًا إلى الخلف. تقدّم "فؤاد" وجلس قربي ليبدأ أبشع وأقسى أنواع التعذيب، لقد كال عديم المروءة والشرف وبمنتهى الوقاحة الشتائم لأمي وأختي. تكوّرت على نفسي وانهارت قواي، فلم يحدث حتّى اليوم أن شتم أحد أمي أو أختي. فكرت لوهلة أن لا مصلحة في منازعة خائن عديم الرحمة كـ"فؤاد"، وأنّه عليّ التنازل لكن ليس لدرجة الخضوع الكامل. قطع "فؤاد" عليّ أفكاري وقال: "هل ستنفذ ما أطلبه منك أم أرسلك للإعدام؟"، فأجبته: "سأقول إنّ عمري 16 عامًا" ومع أنّني تنازلت سنة واحدة، إلّا أنّ ذلك لم يرضه وأشار لـ"إسماعيل" الّذي رفع سوطه عاليًا، فصرخت بكلّ ما أوتيت من قوة علّه ينصرف عن ضربي، إلّا أنّ "إسماعيل" الّذي كان يدخن سيجارة - بعد الفراغ من ضربي أول مرّة - نفث سيجارته وتقدّم مني يريد إطفاءها في وجهي، فضربت بيدي على السيجارة الّتي تناثرت على وجهه ووجهي أيضًا، لكنّ حرارتها كانت أبرد من أن تحرقني، فثارت ثائرة "إسماعيل" لجرأتي وانهال عليّ رفسًا وضربًا بقبضتَيه الثقيلتَيْن إلى أن أمره "فؤاد" بالتوقف.

تقدم "فؤاد" مني ثانية - بيد أنّ الوقت لا يتسع لمجادلتي - وقال: "ما رأيك أن تقول إنّك في الـ14 من العمر؟". فكرت في أنّ الأمر لا يستحقّ كلّ هذا العناء والتعرّض للضرب والأذية، فقررت التنازل أيضًا لكن ليس لدرجة تحقيق

مآربه فقلت له: "سأقول إنّني في الـ15". عاد "فؤاد" ليكيل لي الشتائم والألفاظ النابية، لكنّه وافق في النهاية. شغّل مسجل الصوت وأراد أنّ يوّجه السؤال الأول، لكنّه انصرف عن ذلك. كان يعلم أنّ حالي غير مناسبة لإجراء المقابلة. فصوتي بعد كلّ الضرب الّذي تعرّضت له كان مشوباً بالبكاء. لذا طلب مني أنّ أغسل وجهي أوّلًا، غسلته وراح الجندي يلوح بالمنشفة أمام وجهي كالمروحة كي انتعش قليلًا ويبدو صوتي طبيعيًا في المقابلة.

في النهاية، ضغط "فؤاد" على مفتاح التسجيل، قرّب الميكروفون من فمه وبعد مقدّمة صغيرة، سألني: "بنيَ العزيز! عرِّف عن نفسك وكم هو عمرك؟" عرّفت عن نفسي وقلت إنّ عمري 15 عامًا. ثمّ سألني كيف جئت إلى الحرب؟ وكان يتوقع أن أقول إنّهم أجبروني على المشاركة، لكنّني قلت: "كانوا بحاجة إلى مقاتلين وسألوا من يستطيع المشاركة والتطوّع، فأعلنت عن استعدادي!". لم يسمع فؤاد الإجابات الّتي يريدها، كما إنّه قد ملّ من الشجار، لذا أطفأ مسجّل الصوت، شتمني ثمّ أمر "إسماعيل"بإعادتي إلى السجن وهدّدني بالإعدام إن أخبرت الآخرين أنّني ضُربت. لم أرَ سببًا لطلبه هذا. وكقائد هزم عدوه في المعركة، عدت إلى السجن مزهوّا بنصري.

لقاء هامّ

في صباح 6 أيار، جاء "أبو وقاص" وتحدّث إلى "صالح". بالطبع لم أفهم ما قاله، لكنّ العقيد فهم بعض الأمور، فأسرّ إلى الضابط الطهراني أنّ عودتنا إلى "إيران" أصبحت حتمية، وسوف نذهب لاستكمال بعض الإجراءات. نقل الضابط الطهراني ذلك للضابط الشيرازي الّذي همّ بإخبارنا عندما قال "صالح": "أيها السادة، ارتدوا ملابسكم بسرعة وجهزوا أنفسكم للخروج".

سأل "محمّد باباخاني"، وهو أقلّنا كلامًا: "إلى أين؟"، فقال "صالح": "يقول أبو وقاص يجب الذهاب لاستكمال ملفّاتكم قبل العودة إلى إيران، ويجب ملء بعض الاستمارات والتقاط صور جديدة لكم".

ركبنا الميني باص المنتظر في آخر الزقاق، وانطلقنا إلى مكان مجهول. كانت شوارع "بغداد" مزدحمة كالعادة، وكان "صالح" يجلس على مقعد في الصف الأوّل قرب الجندي العراقي المسلّح، بينما جلس "أبو وقاص" قرب السائق. بعد دقائق عدّة، توقف الميني باص قرب بوابة، واقترب مسلّح عراقي بقبّعة حمراء كتب على كمّ قميصه: "التنظيمات العسكريّة". تحدّث إلى "أبي وقاص"، ثمّ أبعد الحاجز الكهربائي وأدّى التحية العسكرية احترامًا.

وصلنا إلى مكان مختلف عن باقي مناطق "بغداد"، ووقف الميني باص أمام بوابة أخرى تشبه البوابة الأولى، ثمّ دخلنا منطقة أمنية. وكلّما أردنا سؤال "صالح" عن المكان، رفع الجندي المسلح إصبعه وقال: "صه". عبرنا المنطقة الأمنيّة الثالثة والرابعة، ثمّ توقفنا أمام مبنى فخم. سار "أبو وقاص" في المقدمة، ثمّ "صالح" ونحن، ثمّ الجنديّ المسلّح.

أدخلنا غرفة كبيرة. تحدّث "أبو وقاص" إلى الضابط الجالس خلف الطاولة، يبدو أنّه من أصدقائه، فراحا يتبادلان أطراف الحديث ويتسامران. مضى على وجودنا هناك حوالي الساعة، عندما جاء ضابط آخر وأعطى الأمر بالحركة.

وانحرفنا في ممرّات عدّة قبل أن نصل إلى قاعة واسعة كبيرة، حيث الهواء منعش، والجو بارد ومعطّر. دخلنا إلى قصر شبيه بما قرأنا عنه في الكتب، بل أشبه بقصر الأمير في فيلم "سندريلا" الّذي شاهدته في سينما "مهتاب" في مدينة "كرمان". تدلّى من السقف المرتفع عدد من الثريّات الكبيرة، وفُرشت الأرض بسجاد نفيس ذي نقوش وألوان زاهية.

لم يكن في المكان غيرنا، عبرنا هذه القاعة إلى قاعة أخرى، وجرى عند المدخل تفتيشنا، وأُجبرنا على خلع أحزمتنا، ووضعها في زاوية. بعد لحظات، دخلنا صالة كبيرة تتوسّطها طاولة بيضاوية الشكل، ويحيط بها عدد من المقاعد الجلدية الفخمة، وأمام كلّ مقعد ميكروفون صغير وإناء مياه.

أمرونا بالجلوس على المقاعد. جلتُ ببصري في أنحاء الصالة: يوجد على رأس الطاولة مقعد جلديّ فخم جدًّا كمقاعد الملوك، وعلى الجدران الرائعة الألوان عُلّقت لوحة كتب عليها الآية القرآنية الآتية: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾. على مسافة بضعة أمتار من الطاولة، كان هناك عدد من الجنود أصحاب الأجسام القويّة. وكان المراسلون والمصوّرون حاضرين في المكان أيضًا. ما إن جلسنا حتى جاء "أبو وقاص" وأخبر "صالح" أمرًا، فانتفض الأخير متعجبًا وقال لنا: "يقول إنّ السيّد الرئيس قادم الآن، هيا انهضوا".

لم يكتف "أبو وقاص" بكلام "صالح"، بل نهرنا كي نسرع بالوقوف. سمعنا من الخلف وقع خطوات عسكرية، فتدافع المصورون نحو مصدر الصوت. رأينا رجلًا باللّباس العسكري يدخل ممسكًا بيد فتاة صغيرة باللباس الأبيض. كان ا لحرّاس الشخصيّون يمدّون أمامه نوعًا من السجاد البلاستيكي الصغير، وبعد أن يمرّ فوقه يجمعونه من خلفه. دخل باسم الثغر، واتجه مباشرة إلى المقعد الملكي. ويا لدهشتنا! إنّه "صدام حسين" رئيس جمهورية "العراق"!.

وكأنّما انهار كلّ شيء من حولنا. نحن الآن في قصر "صدّام" إذًا. "صدّام" الّذي يقصف مُدننا ويحتلّ أجزاءً من تراب وطننا ويقتل أبناءه. ها هو الآن على بعد خطوات منّا، ينظر إلينا مبتسمًا، بينما نحن لا حيلة لنا غير أن نجلس مقطّبي الحواجب دلالة على عدم الرضى!.

جلس "صدّام" وجلست ابنته الصغيرة قربه. كان يرتدي زيًّا عسكريًّا أخضر، عليه كثير من الأوسمة، ويحمل أعلى رتبة عسكريّة في البلاد، وكان مهيب الركن، ولون وجهه داكنًا أكثر مما يظهر في الصور.

بحث عن مترجم قبل أن يبدأ الكلام، وعندما اطمأنّ إلى وجوده ابتسم وقال: "أهلًا وسهلًا". تحدّث بداية عن الحرب العراقية الإيرانية، وأنّه لم يكن يرغب في وقوعها بين البلدَيْن الجارَيْن، مُعبّرًا عن أسفه لذلك. ثمّ قال: "نحن اليوم طلّاب سلم، نتعاون مع المنظمات الدولية للتوصل لإيقاف الحرب، لكنّ الطرف الإيراني وللأسف الشديد لا يريد ذلك". ثمّ وجّه كلامه لنا قائلًا: "جميع أطفال العالم هم كأطفالنا، وما كان للنظام الإيراني أن يرسلكم إلى الجبهات وأنتم في هذا السنّ، فمكانكم في المدارس وليس في ساحات الحرب".

لم تكن الفتاة الصغيرة لتهتمّ لكلام أبيها أو لوجودنا، بل كانت ترسم على ورقة أمامها. تابع "صدّام" كلامه: "بعد هذا اللقاء سيطلق سراحكم لتعودوا إلى أمّهاتكم وآبائكم، وأمرت أن يشتروا لكم الهدايا لتأخذوها معكم إلى إيران".

بعد ذلك بدأ يُسائلنا، فكانت البداية مع "حسن مستشرق".

- ما اسمك؟
- حسن مستشرق.
- من أين؟
- من محافظة مازندران.
- هل أنت من القرية أو من المدينة؟
- من مدينة ساري.
- ما عمل والدك؟

- عامل.

وصل دور "أبي الفضل محمّدي":

- وأنت من أين؟

- من زنجان.

- من مدينة زنجان نفسها؟

- لا من ريف قيدار.

- هل والدك مزارع؟

- لا بل عامل مطحنة.

- هل لديك إخوة أكبر منك؟

- بل أصغر منّي.

- هل تذهب إلى المدرسة؟

- أجل في الصف الثاني متوسط.

بعد "أبي الفضل"، جاء دور "يحيى كسائي نجفي"، فسأله "صدّام":

- ما اسمك؟

- يحيى كسائي نجفي.

- من أيّ مدينة؟

- من طهران.

حدّق صدام فيه لدقيقة ثمّ سأله:

- هل كان والدك في النجف من قبل؟

- لا.

- ماذا عن جدّك؟

- لا.

- ماذا يعمل والدك؟

- عطّاراً.

- هل أنت الأكبر بين إخوتك أم الأصغر؟

- أنا الأوسط.

بعد ذلك، جاء دور "جواد خواجوئي"، وكان من الإخوة الصغار السنّ، فأشار له "صدّام":

- وأنت؟

- جواد خواجوئي، من متطوعي كرمان.

- من المدينة أو القرية؟

- من مدينة سيرجان.

- ما هو عمل والدك؟

- سائق.

- هل أنت تلميذ؟

- أجل.
- في أيّ صف؟
- أول متوسط.
- هل أنت من "الشطّار" أو من الكسالى؟
أجاب جواد بعد سكوت قصير:
- بين بين.
فقال "صدّام" متّخذًا لهجة النصح: "لكن يجب أن تكون من الشطار!".
بقي شخصان قبل أن يصل دوري، فتمنيت أن ينهي محاورته عند هذا الحدّ. كان الإخوة يجيبون بأقل كلمات ممكنة عن أسئلة "صدّام"، وهذا دليل آخر على عدم رضانا عن الحضور في هذا المكان. انتبه "صدّام" لوجود "علي رضا شيخ حسيني":
- ما هو عمل والدك؟
- من العشائر.
في "إيران"، نطلق على من يعمل في تربية المواشي على أطراف المدن والأرياف، وحتّى لو لم يكن من الرَحّل، اسم العشائر الّتي لها في "العراق" معنى آخر، فالتبس الأمر على "صدّام" وسأله: "من أيّ عشيرة أنت؟ ما اسم شيخ عشيرتكم؟". ولمّا لم يفهم "علي رضا" المقصود، تابع "صدّام": "هل أمّك على قيد الحياة؟".
- أجل.
بعدها سأل "صدّام":
- من منكم قد توفيت والدته؟
فلم يجب أحد. عندها سأل سؤالًا آخر:
- من منكم من المدينة ومن منكم من القرية؟ ليرفع ابن المدينة يده.

بالطبع، لم أرفع يدي. يبدو أنّ "صدّام" أراد إنهاء اللقاء. وبإشارة منه، تقدّم ضابط يحمل صينية عليها علبة خشبيّة. أخذ "صدّام" من العلبة سيجارًا، أشعله وبدأ ينفث دخانه الغليظ في المكان، ثمّ قال: "إن شاء الله ستنتهي هذه الحرب، ويعود الجميع إلى أهله في القريب العاجل ما إن نحصل على موافقة الصليب الأحمر، وهناك تابعوا دراستكم، وعندما تصبحون أطباء ومهندسين اكتبوا لي الرسائل"[13]. شعرنا أنّ اللقاء قد شارف على نهايته، لكنّ "صدّام" قال: "والآن ستوزعّ عليكم ابنتي "هلا" الورود البيضاء علامة السلام". ما إن أنهى كلامه حتّى تقدّم ضابط يحمل إناءَ بلوريًا فيه ورود بيضاء، ناوله "هلا" الّتي دارت علينا، فأخذ كلّ منّا وردة وضعها في جيبه.

لم يتوقّف الأمر عند هذا الحدّ، بل أمر "صدّام" بوقوف الجميع خلفه لالتقاط صورة تذكارية قائلًا: "سنلتقط وإيّاكم صورة تذكاريّة نعطيكم إيّاها ضمن ألبوم تأخذونه معكم إلى إيران للذكرى". شقّ علينا التقاط صورة مع "صدّام" ومَقَتناه كثيرًا، لكنّنا أسرى وما باليد حيلة غير تنفيذ الأوامر. وقفنا خلف كرسي "صدّام"، وقف "منصور"، "جواد" و"حميد"في الصف الأوّل. كنتُ في حالة سيّئة والدقائق تمرّ عليّ ثقيلة. لم أشأ أن أظهر في الصورة لذلك وقفت في آخر الصف خلف أحد الإخوة، أحنيت ركبتيّ قليلًا وخفضت رأسي، وبذلك اختفيت عن عدسة المصوّر.

[13] في العام 1996 بعدما تخرجت من الجامعة، وبناءً على طلب "صدّام" كتبت له رسالة نشرها عدد كبير من وكالات الأنباء والصحف في ذلك الوقت ويمكن للقارئ الاطلاع عليها آخر الكتاب.

تذكّرت حينها الحيلة الّتي اتبعتها للاختباء عن أنظار "قاسم سليماني" كي لا يخرجني من صفوف المتطوعين.
كان كلّ شيء جاهزًا لالتقاط الصورة، لكن ينقص شيء أساس وهو ابتسامتنا لتتوافق مع ابتسامة "صدّام". حاول "صدّام"، وبخطة ذكيّة أن يدفعنا للابتسام فسأل: "من منكم لديه طُرفة؟"، ولمّا لم يجب أحد قال: "إذًا ستحكي لكم 'هلا' طرفة".

كانت "هلا" قد عادت إلى مكانها لتنهي رسمتها بعد توزيع الورود، مسح "صدّام" على رأس ابنته الّتي لا تتجاوز السادسة من العمر، وقال: "هل تعرفين طرفة تحكيها لهم؟"، رفعت "هلا" رأسها عن الورقة ثمّ قالت بلحن طفولي: "تسو" (أي لا). لم ينجح "صدّام" في إضحاكنا، لكنّ لحن "هلا" الطفولي رسم ابتسامة على وجوه بعضنا استغلّها المصور فالتقط الصورة. انتهى اللقاء، غادر "صدّام" وعدنا نحن إلى سجن "بغداد".

ضيفان جديدان

كان كلّ شيء كما تركناه في السجن، العقيد والضابطان جالسون في أماكنهم بصمت، لكن كان عندنا ضيفان جديدان، شابّان باللّباس المدني متّكئان على الجدار، أردنا أن نعرف من يكونان؟ ومن أين؟.
اقترب أحد الإخوة منهما وقال: "السلام عليكم، من أيّ فرقة أنتما؟ من التعبئة أو من الجيش؟". أجاب أحدهما بغرور: "نحن من المنظمة". حينها علمنا أنّهما من أعضاء منظّمة مجاهدي خلق المعروفة بالمنافقين في "إيران"، ويبدو أنّهما خُدعا بالوعود الّتي يُطلقها البعثيّون عبر القسم الفارسي في الإذاعة العراقيّة، فعبرا الحدود طمعًا بالسيارة والمنزل والسفر إلى أوروبا وطلبًا للّجوء السياسي.
لم يكن قد مرّ وقت طويل على تفجيرات المنافقين الّتي أدّت إلى استشهاد عدد من أبناء الثورة، ومن الطبيعي أن نكنّ لهم الكره والبغضاء، لذا اقتربت من أحدهما وسألته: "ما أخبار الميليشيّات، هل ما زالت تقتل الناس؟". نظر أحدهما إليّ شذرًا وقال:"ميليشيات؟! هل تُسمّي منظمة مجاهدي خلق ميليشيات؟"، فقلت له: "لو لم تكن كذلك لما ارتميتم في أحضان الأعداء"، فأجاب: "لقد فررنا من السجون الإيرانية ولجأنا إلى العراق من أجل متابعة النضال". ضحك الإخوة وقالوا باستهزاء: "نضال؟". طقش "حسن مستشرق" الشابّ الصريح والجسور بفمه مستهزئًا وقال: "مرحبًا يا مناضل!"، فضحكنا ثانية. عندها، تدخّل "صالح" ودعا الجميع إلى السكوت.

خفّف نزاعنا اللفظي مع عضوَيْ منظمة "خلق" من توترنا بعد زيارة قصر "صدّام"، فكنّا كمن خسرَ ساتراً في معركةٍ واحتلّ آخر. جلسنا في أماكننا، فتذكرنا الساعات الصعبة الّتي مررنا بها. كان "سلمان زاد خوش" ما زال حانقًا. خلعَ قميصه بحذر كي لا يتسبّب بنزف جرحه مجددًا وقال: "عندما وقفنا خلف "صدّام" كنت أدعو الله أن يضع في جيبي مسدّسًا لأطلق النار على رأسه فأرديه قتيلًا". ضحكنا لقوله فأضاف بجديةٍ: "أقسم إنّني أقول الصدق، حتى إنّني بحثت في جيبي مرات عدّة معتقدًا أنّه ربما استُجيبت دعواتي".

عندما ذكر "سلمان" الجيب دسست يدي في جيبي وأخرجت منها وريقات الوردة البيضاء، الّتي كنت قد سحقتها من شدّة الغضب ورميتها في سلّة النفايات، وحذا باقي الرفاق حذوي. قال "محمود رعيت نجاد" لـ"صالح": "هل انتبهت يا ملّا؟ كنت أريد مدّ يدي نحو كرسي صدّام عندما ضربني أحد الحراس عليها!".
فقال "صالح": "صه".

كان "حسن بهزاد" الشاب المبتسم دومًا يقضي أوقاتًا صعبة، قال: "ما أسوأ ما حصل أيها الإخوة، لقد جئنا إلى الجبهة لقتال صدّام، فأخذنا عديمو الشهامة إلى قصره لنلتقط معه الصور التذكاريّة كي يستغلّوها لغاياتهم الإعلامية".
كان "محمد ساردوئي" أكثرنا انقباضًا، وقال إنّه كان علينا فعل شيء في مواجهة "صدّام". فسألته: "مثلًا؟"، فكّر مليًا ولم يصل إلى أيّ نتيجة. كنّا جميعنا نشعر بالذنب، قال "حسن مستشرق" الّذي كان يلوم نفسه ويلومنا: "لقد ذهبنا بماء وجه التعبئة والبلاد، فكيف لنا أن نرفع رؤوسنا أمام الشهداء والإمام؟".

وقال "سلمان زاد خوش": "لِم لم نرفع نداء "الله أكبر" الّذي رفعناه ليلة العمليات في قصر صدّام، لِم لم أفعل شيئًا، وصمتّ؟".

كان كلّ منّا يذكر شيئًا من اللّقاء المشؤوم بـ"صدّام" ويلوم نفسه. لكن في الحقيقة، لم نكن نستطيع القيام بأيّ شيء، فماذا يستطيع بضعة صبية فعله مقابل حرّاس "صدّام" الأشدّاء قساة القلوب؟ كنّا نتوقع من أنفسنا فعل ما يفوق طاقاتنا. لُمنا أنفسنا كيف لم نهجم عليه هجمة رجل واحد لنخنقه عندما أُتيحت لنا الفرصة، ووقفنا خلف كرسيّه لالتقاط الصور! لكن كيف يمكن الإقدام على عمل خطير كهذا دون تنسيق مسبق؟ خاصة وجود ذلك النظام الأمني القويّ في القصر، إذ يمكنهم القضاء علينا في طرفة عين. حتى إنّ "صدّام" لا يسير إلّا على سجّاد خاص إمعانًا في التشدد والمحافظة على أمنه وسلامته. كيف يمكن وسط كلّ هذه الإجراءات والسلاح القيام بخطوة خطيرة كهذه؟

كنّا نعلم كلّ هذا، ونعلم أنّنا سنقتل حتّى قبل أن تصل أيدينا إليه، لكنّ الأفكار الّتي راودتنا أشعرتنا بالذنب. قلت في نفسي: "ألم نأتي إلى الجبهة لنستشهد؟ ألم نأتي لمواجهة الموت القاني؟ ألم نكتب وصايانا ووضعناها في حقائبنا وسلمناها لتعاون14 الحرس الثوري؟ حسنًا! ما الفرق إذًا، وأين المشكلة فيما لو تأخر موعد الشهادة بضعة أيام، فيُراق دمنا في قصر صدّام حتى لو لم نستطع أن نصيبه بأدنى أذى؟ فالتاريخ سيحفظ لنا تلك المحاولة. لكنّنا من جهة أخرى، وجدنا لأنفسنا الأعذار، فإن قُتلنا دون أن نصيبه بأذى، فمن سيعلم بمحاولتنا تلك؟ وما الفائدة من خطوة لن تؤثّر على العدو في شيء ولن يعلم بها أحد وكأنّها لم تكن أساسًا. كما ولن تذكر في أي صفحة من صفحات التاريخ. هنا تذكرنا مواجهة الإمام السجاد عليه السلام والسيدة زينب عليه السلام لـ"يزيد" في قصره. سلّمنا أمرنا إلى الله، ورضينا بما قسمه الله لنا.

---

[14] تعاون أو شؤون الحرس: مركز دعم ومتابعة خلف الجبهة، مهمته: حفظ الأمانات، تسلّم وتسليم السلاح والثياب العسكرية وأي أشياء وأغراض، وحتى استلام أجساد الشهداء أيضًا وتسليمها إلى الجهات المعنية في المناطق والمدن.

من كتاب: القدم التي بقيت هناك

كنت أهيمُ في زحام ذكرياتي وحيدًا، فجأة جلس بالقرب منّي أسيرٌ، لم أره من قبل. كان الأسرى الأصحّاء يتمشّون في الفناء، بينما أقبع منطوياً على ذاتي في إحدى الزوايا، لقد شعرت بانجذاب نحوه من المرّة الأولى، اسمه **"ميثم سيرفر"**[15]، توحي ملامحه بأنّه من أبناء جنوب إيران. قال الإخوة: إنّه كان في وحدة الإعداد والتخطيط، لكنّه كان **"بريد"** الحاجّ **"قاسم سليماني"**، قائد فرقة **"ثار الله 41"**. لقد أرسله الحاجّ **"قاسم"** إلى قائد لواء التخريب في الفرقة **"الحاج مرتضى باقر"**، وعلى مفترق الطُرق قرب الحسينيّة أُصيب بشظيّة

من كتاب: همّت

كلمة واحدة : تعال!

إنّ من خصائص حربنا هي أنّها وضعت كلّ أنواع عدم التكافؤ جانبًا، وشهدت الابتكارات والإبداعات في ساحة الدفاع المقدّس. ما كان يميّزنا عن الجيوش الكلاسيكيّة في العالم هو كلمة واحدة، فلو أردنا أن نميّز ما بين الحاج أحمد متوسليان والحاج همّت وقادة فرق الشهداء وبين القادة الكلاسيكيين لجيوش العالم، فإنّه، بالإضافة إلى القضايا المعنويّة والسلوكيّة، كان هناك كلمة نعبّر عنها بـ"**تعال**" و"**اذهب**"، أي إنّ قادتنا كانوا يقفون في ساحة المعركة ويتقدّمون ويقولون "**تعالَ**".

فلو لم تكن هذه الريادية والوقوف في الخطوط الأماميّة لما حدث مثل هذا الأمر. فعندما يقول القائد: تعال، سيكون دور هذا القائد مثل ملكة النحل التي يجتمع كلّ النحل حولها.

وفي يومنا هذا، فإنّ الشهيد همّت ليس قدوةً ومحبوباً من قبل شباب طهران فحسب. هو محبوبٌ في كلّ البلاد ومشهورٌ (...).(من كلمة للحاج قاسم سليماني في ذكرى الشهداء القادة لفرقة **"27 محمد رسول الله"** 2013)

من كتاب: جوهرة هامون

يعرّف الحاج قاسم سليماني رفيق دربه "مير حسيني" فيقول: "كان كبير فرقة "ثار الله 41"، وهو الشخص الذي ما زلتُ لحدّ الآن أشعر بغيابه في كلّ مهمّة،.. لقد كان صاحب روح عظيمة، كان بمنزلة مالك الأشتر بكلّ ما للكلمة من معنًى. .. كان قائدًا بكلّ أبعاد القائد الإسلامي وفق التعريف الأصيل لأمير المؤمنين عليه السلام.. كل من كان يستمع إلى تلاوته القرآنيّة العذبة يصاب بالذهول. كان خطيبًا، وإذا شرع بالكلام، كان ــ بحسب تعبير الشباب ــ يسحر القلوب. وكانت كلّ كلماته مصحوبةً بشواهد الآيات والروايات.

[15] "ميثم سيرفر" من مدينة "جيرفت" في محافظة "كرمان"، كان من عناصر التعبئة في فرقة "ثار الله 41". كان أخوه قائد الكتيبة المؤلّفة من دمج عناصر الجيش الإيرانيّ النظاميّ وعناصر الحرس الثوريّ. وقد استشهد عام 1983 في عمليات "والفجر1" شمال غرب "فكه".

سنبقى:

تقدّمنا، واقتحمت القوات خطّ الأعداء بشجاعة، وتوغّلنا في عمق جبهتهم. لم يفصل بين جزيرة مجنون والخطّ غير الماء، كانت الذخائر والعتاد تصل بصعوبة بالغة، كما إنّ مروحيات العدو كانت تقصف مجاري المياه وحقول القصب ما أعاق عبور الزوارق.

في الخط، أجبرنا على الدفاع بما تيسّر من الإمكانيات المحدودة. حوصرنا بين الأعداء والمسطحات المائية، وكنا نرى أمامنا دبابات العدو وأعدادها تتزايد باستمرار. تراجعت قواتنا إذ لم يعد في الإمكان الصمود والدفاع أكثر من ذلك.

كنت في المقدّمة مع مير حسيني، سرغزي زاده، بودينه وعدد قليل من الإخوة. قلت لمير حسيني:

- بما أن قواتنا قد انسحبت، لِمَ لا نتراجع نحن أيضًا إذ لم يعد في اليد حيلة.

حينها نطق مير حسيني بما جعلني أخجل أن أطلق على نفسي بعد ذلك اليوم، اسم مقاتل أو مجاهد:

- قال لي قائد الفرقة الحاج قاسم سليماني، إمّا أن تحفظ الخطّ أو تستشهد فيه. وأنا بناءً لأوامر قائدي سأبقى هنا، إما أحفظه أو أستشهد دونه.

كنت أعرف مدى احترام مير حسيني وتقديره للحاج قاسم سليماني، لكنني لم أتصوّر أبدًا أنه على استعداد لبذل آخر قطرة من دمائه ليحافظ على عهده. كنا على يقين أن مير حسيني يعلم عجزنا عن البقاء، وأن الأعداد الغفيرة والهجوم الواسع للأعداء سيجبراننا على التراجع والانسحاب في النهاية، إلا أنه عقد العزم على الوفاء بالعهد الّذي قطعه على نفسه.

خلال العمليات، أسرنا أحد قادة الجيش العراقي، وكان قوي البنية طويل القامة، يبلغ طوله حوالي المترين. كانت هذه المرة الأولى التي أقيّد فيها يديّ أسير. كان من الخطر إبقاؤه طليقًا مخافة أن يهاجم الإخوة فيقطّعهم إربًا. حملناه في الزورق وأرسلناه إلى الخط الخلفي حيث بدأ مير حسيني باستجوابه. وبما أنني أجيد اللغة العربية بعض الشيء، رحت أترجم له.

تحدّث مير حسيني إليه حوالي الساعة بهدوء، رويدًا رويدًا

انقلبت حال القائد العراقي وهدأ روعه تمامًا، كأنّنا صببنا الماء على النار. بعد ساعة تقريبًا أمرنا مير حسيني بحلّ وثاقه، ثم قدّم إليه البرتقال. فجأة أجهش الأسير بالبكاء، ثم ضمّ إليه مير حسيني وأخذ يقبّله. كان مير حسيني يمتلك رأفة علي عليه السلام في الحرب.

يُقرع الباب. إنهما "حميد شفيعي" و"حميد سرغزي زاده". يدخلان ويتعجّبان لوجود كلّ تلك الأوراق التي تطوّقني. أشرحُ لهما الأمر فيضحكان. نجلس على الأرض، نتبادل أطراف الحديث، وخاصةً الحديث عن مير حسيني، فهو محور كلامنا وأحاديثنا. يبدأ حميد شفيعي الكلام، أضعُ آنية حفظ الحرارة المليئة بالشاي والأقداح بجانبي كي لا أضطر للنهوض وإحضارها أثناء حديثه، أريد أن أكون أذنًا صاغية لكلّ كلمة يتفوّه بها. يبدأ الكلام:

وصلنا إلى شرق دجلة. شرحتُ لمير حسيني الوضع وسألته: "أين نتموضع كي لا نتعرض للمشاكل كثيراً؟".

حدّدَ مواقعَ القوات ونقاط الدفاع، ووزّع قادة الكتائب قواتهم على تلك النقاط. قلت له:

- سنواجه مشاكل بهذا العدد القليل من العناصر.

- أوافقك الرأي، لذا أحضرنا كتيبة عباس زاده[16] أيضًا.

هاجمنا العراقيون، وكان الصمود في مواجهتهم صعبًا للغاية، لكن مير حسيني أصرّ على قراره، وقال: "خذوا وضعية القتال وقاوموا".

[16] عرج إلى السماء الزرقاء بوجه أحمرٍ قانٍ.

أرسلني أنا وبودينه إلى ميمنة القوات، وأرسل عددًا آخر من قادة الكتائب إلى الميسرة، بينما تولّى هو رأس الحربة.
اتصل مير حسيني بـ "بودينه" عبر اللاسلكي وقال له:
- أيها الرفاق لا خيار لدينا سوى المقاومة، فلا معنى للتقهقر في قاموسنا، لقد دخلنا المعركة كالإمام الحسين عليه السلام وسنخرج منها مثله مرفوعي الهامات.
هاجمنا الأعداء من كل حدب وصوب، ودارت معارك ضارية بالسلاح الأبيض. رغم ذلك، وكي يرفع مير حسيني من معنويات المقاتلين، وقف أعلى الساتر الترابي وراح يرمي على الدبابات العراقية. بقي على تلك الحال حوالي الساعة، ونحن نتوقع أن يتصل في أي دقيقة ويطلب منّا الانسحاب ولو مئة متر، لكنه لم يفعل. كان المقاتلون يدافعون عن مواقعهم بالرشاشات وقذائف الـ"آر بي جي"، وقد استشهد منهم عدد لا بأس به، لكننا لم نتزحزح عن مواضعنا قيد أنملة. صمدنا وقاومنا إلى أن تمكن العدو من فصل ميسرة قواتنا. عندها بدأنا انسحابًا تكتيكيًا متراسًا بعد متراس.
كان مير حسيني على الساتر الترابي عندما أصيب برصاصة فتدحرج على الأرض. ذهبتُ إليه ورأيته يبكي. نظرت لأرى مدى تقدّم القوات العراقية حين قال لي:
- أوصل سلامي للحاج قاسم سليماني.
اشتدّ قصف الأعداء خلف خطّنا في محاولة لعزلنا عن خطوطنا الخلفية. قلت:
- كفى يا حاج! هيا اركب لأحملك على ظهري ولنغادر المكان.
رفض قائلًا: "دعني هنا وارحل".
أجبرته على النهوض وانطلقنا. كنت قد تعلّمت من الإخوة في وحدة الاستطلاع في جبهة غرب البلاد دعاءَ وَرد في حديث للإمام الصادق عليه السلام، يحتوي على معانٍ جميلة، ومما جاء فيه أن الله تعالى إذا شاء أن يحمي عبدًا ويحفظه كان له حصنًا ودرعًا منيعًا. رحتُ أتمتم بهذا الدعاء في الطريق.
أدرت رأسي لحظةً، فرأيت أن دبابة العدو قد وصلت إلى الساتر الترابي وصوّبت مدفعها نحونا. تمتمتُ بالدعاء، وأطلقتْ قذيفة، ولكنّها مرّت بمحاذاة جسمي.
أسرعتُ مع عدد من الإخوة نحو الزوارق. كان بالقرب من الـ"بّد" (الموقع)[17] مستنقع فغرقنا في الوحل إلى الركبتين. لم أكد أتوقف حتى رأيت مروحية الأعداء تحوم فوق رؤوسنا وتطلق النار نحو الزوارق واحدًا تلو الآخر. أخرجنا الزوارق بصعوبة من بين القصب كان الظلام قد حلّ فقال مير حسيني:
- لقد عذّبتك بما فيه الكفاية، دعني هنا و..
قاطعته قائلًا: "يا حاج! ما إن يصل العراقيون إلينا حتى يصبح تكليفي أن أتركك هنا وأرحل.
بقينا هناك حتى منتصف الليل، لم يكن القارب يتحرك، سمعت صوتًا خافتًا يقول: "إيراني... إيراني!".
أصغينا جيدًا لنتأكد إن كان صاحب الصوت إيرانيًا أم لا! كان صوته مألوفًا. عرفناه، إنه منصور حسيني[18]، مسؤول تسليح الفرقة، وقد أرسله قاسم سليماني بحثًا عن مير حسيني.
ناديناه وقلت له إنّ العراقيين في المكان. حملنا مير حسيني على مهل ووضعناه في الزورق الصغير الذي حضّره وانطلقنا في النهر لا نعرف ما إذا كنّا في الطريق الصحيح أم لا. كما إنّ قصف الأعداء لم يتوقف.
نظر مير حسيني في الأنحاء وقال: "إنه نهر إحسان، نحن في الطريق الصحيح". غطّت السحب وجه السماء. استعنّا بنباتات القصب لدفع الزورق إلى الأمام وتقدّمنا وسط النهر إلى أن ابتعدنا مسافة كافية عن الأعداء، ثم شغّلنا

[17] بّد: مواقع مائية محصنة بطريقة خاصة، حيث تردم المستنقعات وتقام عليها طرقات مستوية، وتجعل على جوانب وزوايا الطريق مواقع وتحصينات، قتالية، وللحراسة، والدعم والتجهيزات والمخازن أو الإسناد يطلق عليها (Pad).
[18] ارتقى إلى الملأ الأعلى مرتديًا ثوب الشهادة الأبهى.

محرك الزورق مبتعدين عن المكان. بعد مسافة قصيرة سمعنا بعض الأصوات، كانت عناصر طهرانية. لما اقتربنا أكثر رأيت الحاج قاسم سليماني يقف بالانتظار. كان ينتظر مير حسيني.

يتنفّسُ بعمق، فأقدّم له الشاي كي يرطّب شفتيه. يصمت حميد سرغزي زاده كأنه عاد إلى ذلك اليوم وتلك الساعة وذلك المكان ومن دون أن أنطق بأي كلمة أو سؤال، بدأ بالكلام:

كان الوضع صعبًا جدًا، فقد انسحبتْ قواتنا ولم يبقَ سواي مع 7 أو 8 عناصر، لا ندري ما العمل. فجأة وصل مير حسيني وقال:

- يقول الحاج قاسم سليماني الانسحاب ممنوع.

أخبر الجميع، كان العراقيون قريبين جدًا، فراح يرمي عليهم القنابل اليدوية، ثم نهض وحمل سلاح الـ"آر بي جي"، وضع يده على الزناد لكن القذيفة لم تنطلق فرماه جانبًا وعاد لرمي القنابل.

مرت دقائق وهو على تلك لحال. بيد أن ذلك لم يرضه فعاد وحمل الـ"آر بي جي"، لكن أيضًا لم تنطلق القذيفة، فرماه بغضب داخل الماء. فقدنا الأمل في الحفاظ على مواقعنا وشعرنا بالاضطراب. فقد اقتربت دبابات العدو وراحت تفصل بين قواتنا، ولم يعد من سبيل أمامنا غير الوقوع في الأسر أو النزول إلى المستنقعات.

زحفتُ نحو مير حسيني، قال لي:

- سنبقى، لقد أمرنا قائد الفرقة بالبقاء.

- لكن يا حاج سنقع في الأسر، ولن يرضى الحاج قاسم بوقوعك أسيراً. على الأقل أنقذ أرواح من تبقّى من عناصر.

لم يكن راضيًا، لكنه أعطى الأمر بالانسحاب. كان علينا الوصول إلى الضفة حيث الزوارق، انطلقنا ونحن نتوقع وصول العراقيين إلينا في كل لحظة ليمطرونا برصاصاتهم. وصلنا إلى حيث تركّز قصف الأعداء، كانت القذائف تعبر من فوق رؤوسنا لتسقط في الماء وتنفجر. لم يسمح لنا القصف بالعبور فوق السدّ، اضطررنا للسير بمحاذاته وقد غمرنا الوحل حتى الركبتين. تناثر الجرحى هنا وهناك، لكننا لم نستطع فعل أيّ شيء لهم.

وصلتُ إلى أحد الجرحى، فأصرّ عليّ أن أخبر أهله بأنه وقع أسيراً، وعلى بعد خطوات أمسكَ أحدُ الجرحى بقميص مقاتل يرجوه أن يأخذه معه، وعندما وصلتُ إليه تعلّق بقدمي. إلهي! ماذا عساي أفعل؟ حررّتُ نفسي من قبضته بكل قسوة وتابعت طريقي. ليتني جُرحت أيضًا فلا أصاب بعذاب الوجدان هذا. بعد مسافة رأيتُ عامل إشارة اللواء يجلس وينظر نحوي، لا أدري هل جلس من التعب أم هو مصاب. جلستُ قربه قليلًا ثم نهضتُ وتابعتُ طريقي. بعدها رأيت جريحًا مخضبًا بدمائه، وقد رفع كمّي قميصه كأنما ينوي الوضوء.

نظرتُ إلى الخلف فرأيت الجنود العراقيين قد وصلوا إلى ذلك الجانب من الساتر الترابي، يهلّلون ويحتفلون بنصرهم. وصلتُ إلى الضفة، كان في القارب ثلاثة جرحى، فقد أرسل مير حسيني الجميع إلى الخلف. رأيته، وكان هو مصابًا أيضًا. ذهبتُ إليه ورأيت معاون اللواء قد سقط في الماء فسحبته.

أصر مير حسيني علينا أن ننسحب ونتركه. لم يرضَ أحد بذلك، حمله "شفيعي" على ظهره رغمًا عنه، وراح يركض به. انتابني قلقٌ شديدٌ وخشيتُ أن يحدُثَ لشفيعي أي مكروهٍ فينتهي أمرنا حينها. ما إن نهضت حتى غابا عن ناظريّ. ركضتُ إلى جانب الصخرة فوجدتهما قد احتميا خلفها، بدا شفيعي خائر القوى. قلتُ لمير حسيني إنّي سأذهب لأحضر زورقًا، فلم يعقّب على الأمر. في النهر، رأيتُ أحد العناصر يصلح زورقًا فسبحت نحوه وركبت معه وجذفنا به نحو الضفة حيث ركب مير حسيني وشفيعي وانطلقنا. على بعد مئة متر من السدّ التقينا أحد العناصر في الماء، طلب من مير حسيني أن يقلّه معنا فسبح نحونا وركب الزورق. لم نكد نقطع مسافة قصيرة حتى علق الزورق بين

نباتات القصب الصغيرة وباءت جميع محاولاتنا لجعله يتحرك بالفشل. راح كلٌّ منّا يقدّم اقترحًا. كنا خمسة أشخاص وتضاعف قلقنا عندما سمعنا أصوات العراقيين.

ما زلتُ سالماً:

بعد تلك المرحلة من العمليات، ركبت الدراجة النارية وعُدت مع مير حسيني إلى الخطوط الخلفية، وفي الطريق التقينا الحاج قاسم سليماني قائد الفرقة، كان منزعجًا جدًا فقال: "لمَ تتدخل في المعارك لأجل 70 أو 80 عنصرًا؟ لمَ لا تراعي التسلسل في الرتب والمراتب؟ في البداية قائد الكتيبة، يليه قائد اللواء والمحور، ثم التخطيط والعمليّات، وفي النهاية يأتي دورك. لمَ تتصرّف كما فعلت في عمليات بدر...".

كان الحاج قاسم يريد بذلك القول له أن يحافظ على سلامته أكثر. بعد كل هذا الكلام الناري، ضحك مير حسيني ضحكة قصيرة وقال: "حاليًا ما زلت سالمًا".

كنتُ أعلم، كما مير حسيني وقائد الفرقة، أن لا فائدة من هذا الكلام فلن يطبّقه.

نصلُ إلى المنزل الذي حبست فيه نفسي خلال الأيام الماضية.

أترجّلُ من السيارة وأدعو من برفقتي للدخول فلا يفعلون. أودّعهم وأدخل الغرفة وأصبح وحيدًا وحيدًا..

اليوم، لا أريد أن أقرأ شيئًا أو أن أكتشف سرًا آخر من أسراره، وأوكلُ هذا للغد. أتمدّدُ في الغرفة، أضع الأوراق التي أنهيت قراءتها حتى هذا اليوم في زاوية، والأوراق التي ما زالت تحمل الكثير عنه، في زاوية أخرى. أمدُّ يدي وأحملُ إحدى تلك الأوراق. كانت تضم كلمات حبيب الله دانش شهركي:

كان مير حسيني يولي أبناء المحافظة الأصليّين اهتمامًا خاصًا، ليس ذلك من باب الشعور القومي، وإنما لإيمانه أن النمو الفكري والديني والثقافي لهؤلاء سينعكس إيجابًا على الوضع في سيستان.

أذكر عندما تقرّر تشكيل الكتيبة 409، كأوّل كتيبة مستقلّة لمحافظة سيستان وبلوتشستان، اقترح بداية على الشهيد خدر ي تولّي تشكيلها، ومن ثم على السيد محب علي فارسي، اللذين تهرّبا من الأمر. ثم اقترح عليّ ذلك فاختلقتُ له الأعذار ورفضت.

كنتُ خارجًا عندما وجدتُ نفسي وجهًا لوجه مع قائد الفرقة الذي وجّه الحديث لمير حسيني، وتطرّقا بالحديث إلى تشكيل وحدة قتالية خاصة بمحافظة سيستان وبلوتشستان، فقال الحاج قاسم سليماني معاتبًا: "كيف لك أن تتحدّث عن تأسيس الوحدة القتالية بينما علينا حلّ مشاكلنا بدايةً".

قال هذا ثم ودّعه وخرج. عاد مير حسيني إلى الغرفة وبسبب مرارة ما سمعت عزفت عن الذهاب وعدت إلى الغرفة فرأيت مير حسيني جالسًا على الأرض يبكي. نظرت إليه بتعجب، فقال وهو يبكي بحرقة:

"لمَ نتصرف بشكل يجعل قائدًا كقاسم سليماني، وبسبب التعاطي السلبي لبعض الإخوة، يطلق علينا أحكامًا كهذه؟! لماذا؟".

تأثرتُ كثيرًا لحاله، وكي أخرجه مما هو فيه قلت له: "حسناً يا حاج! سأتولّى تشكيل الكتيبة".

وهكذا وضعنا اللبنة الأساسية لتشكيل الكتيبة، لكنني أبدًا لم ولن أنسى حُرقة بكاء مير حسيني في ذلك اليوم، ومدى محبته لقائد الفرقة، الأمر الذي طالما شهدته، فهو كان ينضح بالعشق، العشق فحسب.

دقة الخبر:

ما إن اقتربنا من منطقة المعارك، حتى قفز عدد من مقاتلينا عن إحدى الدبابات وصرخوا بنا ليمنعونا من متابعة التقدّم، فطلبت من الرتل التوقف. أشاروا بأيديهم إلى ناحية "تلال قلافيزان"، وقالوا إنّ العراقيين قد أسروا عناصر الكتيبة المشتبكة. نظرت بالمنظار إلى منطقة المعارك التي غطتها سحب الدخان والغبار ورأيت عددًا من المقاتلين المنتصرين وآخرين وقعوا في الأسر، لكنني لم أستطع أن أتبين ما إن كان المنتصرون من قواتنا أم من الأعداء.

عدت بالدراجة النارية إلى الخلف وأخبرت الحاج قاسم سليماني بما جرى، فطلب بدوره من "مير حسيني" الذهاب واستطلاع الأمر. عدنا وما إن وصلنا إلى الرتل حتى أخذ مير حسيني المنظار، ثم قال بعد أن دقّق النظر إلى منطقة الاشتباك، إنّ العراقيين هم من وقعوا أسرى بيد عناصر فرقة "نصر5". انزعج مير حسيني كثيراً للخبر غير الدقيق وأنّب مطلقيه بشدّة. بعدها سار نحو منطقة المعارك ولحقنا به. علمت في الطريق أنه حوصر من قِبَل العراقيّين، لكنّه تمكّن من الإفلات منهم. عندما وصلنا أسرناهم جميعًا.

الخطوط الامامية:

أثناء العمليات جلسنا في مركز أركان الفرقة، وصل مير حسيني بيدٍ ووجهٍ وجسمٍ مدمّاة ومضمّدة، ولم يكد يصل حتى سأل عن العمليات وتقدم القوات وأوضاع الكتائب متجاهلًا جروحه، فَعَلَتْ أصواتنا استنكاراً. وسأله الحاج قاسم سليماني عن الذي حدا به للمجيء إلى المنطقة وهو بهذه الحال، وألم يكن في استراحة؟! كما اعترضنا عليه، أصررنا عليه للعودة إلى الخطوط الخلفية. لكنه لم يعر حاله الجسدية أيّ اهتمام، وباءت جميع محاولاتنا بالفشل، لم يرجع، بقي وعمل على إرشاد وتوجيه القوات.

كربلاء 4:

انتهت عمليات "كربلاء 4" وطلبوا منا العودة إلى الخط الخلفي. انطلقنا بالسيارة ورحنا نجول في شوارع عبادان وخرمشهر لا نلوي على شيء، كنّا حيارى هل نعود إلى معسكر الفرقة أم نبقى هنا! وقد خجلنا من النظر في وجوه بعضنا بعضًا كأننا ارتكبنا إثماً كبيراً.

كان لا بدّ من العودة إلى الأهواز. كان مير حسيني في السيارة معنا، لكنه أيضاً لم يتحدّث بشيء، وفي الطريق خيّم الصمت علينا جميعًا.

عندما وصلنا إلى معسكر الفرقة خفّفت السيارة من سرعتها خلف الساتر الترابي قبل نقطة التفتيش. كانت سيارة الحاج قاسم سليماني مركونة على جانب الطريق، وقد جلس أرضًا إلى جانب الساتر الترابي جامعًا ركبتيه بيديه. لم نتوقف، بل تابعنا سيرنا وهنا، أدركت عمق الألم!

خجلنا أن نكون أول الداخلين إلى الاجتماع، فتريّثنا كي يسبقنا الآخرون. دخلنا صامتين نرمق بعضنا بعضًا بأطراف عيوننا. كان الحاج قاسم سليماني يذرف الدمع، وكذلك نحن. لم يجرؤ أحد على الكلام، تصدّى مير حسيني للكلام

كأنّما أراد تأنيبنا: "ما بكم؟ لم تنظرون إلى بعضكم بعضاً هكذا؟ لم جئنا إلى هنا إذًا؟ إن كان الهدف اتخاذ القرارات هيا لماذا التأخير لنعود إلى أعمالنا".

عندها تجرأنا ورفعنا رؤوسنا. فتابع مير حسيني: "هذا جيد، لكن ليس من المقرر أن تبقوا صامتين. أنا مستعد من الآن، ومهما كانت العقبات فسوف ...".

تغيرت أجواء الاجتماع وتولى تاجيك الحديث بعد مير حسيني وقال: "كتيبتنا على أتم الاستعداد ...".ثم نهض مشايخي وقال: "توزعت بيوت الشهداء في زقاقنا على الجانبين، فكيف لي العودة إلى كرمان والنظر إليهم! أنا على أهبّة الاستعداد، ولن أعود قبل النصر أو الشهادة".

وكأنّها ثورة قامت فتجرّأ قادة الكتائب وأعلنوا استعدادهم للمعركة. حينها قال مير حسيني: "علينا الانطلاق فليس من المقرر البقاء هنا، نحن أيضاً لم ننتصر في عمليات بدر ...".

هنا تابع الحاج قاسم سليماني الكلام وقال: "لقد رأيتم كيف كنت أجلس خارج المعسكر خجلاً من الدخول إليه، علينا الاستعداد ...".

كان ذلك الاجتماع شرارة إعلان حال التأهب والاستعداد في الفرقة، بعد حوالي أسبوعين بدأت عمليات "كربلاء 5".

يجعلني اسم عمليات "كربلاء 5" أرتجف. هناك أنفصل عنه، سأنفصل عن ذلك الشاب السيستاني الذي عشت بين أوراق مذكّراته أياماً وأيامًا. لقد ألفته كثيراً خلال هذه المدة، ولم أعد قادراً على مفارقته. تُرى ما الذي حلّ برفاقه بعد استشهاده؟ ما الذي حلّ بالحاج قاسم سليماني؟ وماذا عن أبيه وعائلته؟ لست متأهبًا لوداعة بعد، فكيف يمرّ الوقت بهذه السرعة؟

رصاصة الشهادة:

كتب فريدون شهركي 5 سطور فحسب:

جلسنا حول المائدة ورحنا نتحدث عن طعام الغداء الذي كنا نتناوله وعن ذكريات الماضي. فجأة التفت أحد الإخوة إلى مير حسيني وقال:

- متى ستستشهد يا حاج حتى نأكل في عزائك؟

طأطأ مير حسيني رأسه، مكث قليلًا وقال:

- عندما أصبح نقيّا جدًا، سيأخذني إليه.

عندها صمت الجميع، ولم نتفوّه بكلمة إلى أن أنهينا طعام الغداء. لقد كنا نفكر بما قاله مير حسيني.

أعلم أن مير حسيني كان يحب الحاج قاسم سليماني كثيراً، قرأت عن ذلك في أكثر من مذكرة، حيث تحدثوا عن تلك العلاقة.

يقول الحاج قاسم سليماني عن الليلة الأخيرة:

جلسنا في الدشمة ليلًا وتحدّثنا في مواضيع شتّى. في العمليات السابقة، قلق الجميع من أن يصاب مير حسيني بمكروه، إذ قلّما خرج من المعارك من دون إصابة. قبل بدء عمليات "كربلاء 4" قال: "لا تخافوا لن أستشهد في هذه العمليات ولن أجرح حتى".

لكن في تلك الليلة، أشار إلى جبهته وقال: "ستصيبني رصاصة هنا وسوف أستشهد". وهذا ما حدث.